المبحث الأول :

أسلوب القرآن مفهومه وخصائصه

شغلت قضية الإعجاز مساحة كبيرة من الفكر الإسلامي والإنساني على مرّ العصور، ولا تزال إلى اليوم.ولقد تدارسها كثير من العلماء والبلغاء وأصحاب الكلام، فتعمّقوا في دراسة القرآن دراسة شاملة، بغية الوصول إلى بيان كنه الإعجاز وطبيعته مع إبراز وجوهه التي لا تنتهي عبر الزمن، فالقرآن معجز في نظمه، وبلاغته وأسلوبه المخالف لجميع أساليب كلام العرب رغم ما تميّزوا به من كونهم أهل البلاغة والبيان.

وعن الأسلوب القرآني نتحدث في الصفحات اللاحقة، في محاولة منّا للوقوف على مفهومه، ذاكرين آراء بعض العلماء من قدامى ومحدثين.

1- مفهوم أسلوب القرآن:

قبل الشروع في الحديث عن مفهوم الأسلوب القرآني يجدر بنا بداية الوقوف على معنى (القرآن)، ومعنى (الأسلوب).

أما عن معنى (القرآن) فهو في اللّغة" اسم مشتق من القراءة، والجذر الثلاثي للكلمة هو(قرء)، نقول قرأَ يقْرأُ، قَرأَ، وقراءةً، وقرآنًا. ومنه قوله تعالى:" إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ "(القيامة:17-18) .

أما في الاصطلاح يمكن القول أنّ القرآن كتاب **الله** تعالى، المنّزل على سيدنا **محمّد** ρ المنقول بالتواتر والمتعبّد بتلاوته، والمعجز ولو سورة منه." [1]

[1]- ينظر، صلاح عبد الفتّاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني دار عمار، عمان، ط 1، 2000 م، ص 13.

ثمّ إنّ لكتاب **الله** تعالى العديد من الأسماء أشهرها لفظة "القرآن"، وله أيضًا: الكتاب والنور، في قوله تعالى:"**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا** ﴿١٧٤﴾ " (النساء : 17).

وكذا الفرقان، في قوله تعالى:"**تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا** ﴿١﴾"(الفرقان :01).

أما عن كلمة (أسلوب) التي "صادفت في معناها بعض التفاوت لدى الدارسين والعلماء، فإذا عدنا إلى المعجمات العربية وجدنا مصطلح "الأسلوب" يدخل ضمن مادة (سلب)، التي تضم في المعاجم استعمالات شتى لما اشتقّت منها، غير أنّ الأصل فيها هو الأخذ: أخذ شيء من شيء.

قال **ابن دريد** (321هـ): سلبت الرجل وغيره، أسلبه سلبًا، وناقة سلوب، إذا فقدت ولدها بموت أو بنحر."[1]

وقال **الزمخشري**:" إنّ قولهم: أنف فلان في أسلوب. كناية عن التكبّر، فهو لا يلتفت يمنة ولا يسرة."[2]

وقد تباينت المعاني اللّغوية لمصطلح الأسلوب، حيث يطلق هذا الأخير في لغة العرب على: "الطريق الممتد ويقال للسطر من النخيل أسلوب."[3]

ويطلق أيضًا: "للطريق بين الأشجار، والشموخ بالأنف، والأسلوب هو الطريق والوجه، والمذهب، ويقال لطريقة المتكلم في كلامه."[4]

[1]- ينظر، محمد كريم الكوّاز، الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ط1، 1426هـ، ص 35.

[2]- المرجع نفسه، ص 36.

[3]- مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، دار مسلم، الرياض، ط 2، 1996م، ص 151.

[4]- محمد الصالح الصديق، الوجيز في علوم القرآن وهدايته وأثره، دار هومة، الجزائر، 2014م، ص 279.

وقد أتى مصطلح الأسلوب في موضع آخر بمعنى الفن" فالأسلوب: الفن، يقال أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه."[1]

أما الأسلوب في الاصطلاح فهو "طريقة اختيار الألفاظ، وتأليفها للتعبير بها عن المعاني، أو هو طابع الكلام أو فنّه الذي ينفرد به المتكلم في تأدية المعاني، والمقاصد من كلامه."[2]

وقد اقترنت كلمة الأسلوب بالفن على نحو ما جاء في قول **ابن قتيبة** (276هـ)

"إنّما يعرف فضل القرآن من كثر نظره، واتّسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب."[3]

كما نجد معنى الأسلوب عند **الخطّابي** قد اتّصل بمعنى الفن، وذلك في قوله وهو يعرض أنواع المعارضات بين الشعراء، ليقول في نوع منها"وأن يجر بأحد الشاعرين في أسلوب من أساليب...فيكون أحدهما أبلغ في وصف ما كان في باله من الآخر في نعت ما هو بإزائه...وذلك بأن تتأمل نمط كلامه، فإذا وجدت أحدهما أشدّ تقصيًا لها، وأحسن تخلُّصًا إلى دقائق معانيها، حكمت لقوله بالسّبق، إذ أن تمييز أسلوب الشاعر يأتي من التفنّن الذي سلكه في شدّة تقصّي المعاني، وكشف غوامضها والإجادة في عرضها."[4]

وفي موضع آخر "نجد امتزاجًا بين مفهوم الأسلوب والفن عند الإمام **عبد القاهر الجرجاني**، ليصير الاثنين عنده مفهومًا واحدًا، فقد ذكر الأسلوب وفسّره بالضرب من النّظم والطريقة فيه ما دام النّظم عنده معيار التفاضل، فقد دلَّ على أنّ الأسلوب هو الفن الذي يتفاضل فيه المبدعون من جهة، ويتبيَّن فيه الإعجاز من جهة ثانية."[5]

---

[1]- مصطفى مسلم، مرجع سابق، ص 151.

[2]- المرجع نفسه، ص 151 (بتصرف).

[3]- محمد الكوّاز، مرجع سابق، ص 35.

[4]- المرجع نفسه، ص 39.

[5]- المرجع نفسه، ص 40.

أما عند **"حازم القرطاجنّي"** فالأسلوب عنده هو "طريقة الضّم والتأليف للأفكار الصغيرة داخل الغرض الشّعري فيما يشبه طريقة الضّم والتأليف للألفاظ، ويتجلّى ذلك في قوله: فكان الأسلوب بمنزلة النّظم في الألفاظ الذي هو صورة كيفية الاستمرار في الألفاظ والعبارات والهيئة الحاصلة عن كيفية النقلة من بعضها إلى بعض، وما يعتمد فيها من ضروب الوضع وأنحاء التأليف."[1]

وعليه فإنّ الأسلوب عند **القرطاجنّي** هو في مرتبة النّظم في الألفاظ.

ومعنى ذلك أنّ "الأسلوب هيئة تحصل عن التأليفات المعنوية، وأنّ النّظم هيئة تحصل في التأليفات اللّفظية والواجب أن يلاحظ المتأمل فيه التناسب والتلطُّف في الانتقال من جهة إلى جهة، والصيرورة من مقصد إلى مقصد."[2]

وبعد وقوفنا على معنى (الأسلوب) ننتقل إلى عرض بعض ما قيل، حول الأسلوب القرآني ومعناه كوجه من وجوه الإعجاز، وآراء بعض العلماء من قدامى ومحدثين في شأنه.

وأنسب ما قيل في تعريف أسلوب القرآن أنّه هو" طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه، واختيار ألفاظه، ولقد تواضع العلماء قديمًا وحديثًا على أنّ للقرآن أسلوبًا خاصًا به مغايراً لأساليب العرب في الكتابة والخطابة والتأليف."[3]

"ثمّ إنّ الأسلوب غير المفردات والتراكيب لكلامه، وهذا هو السر وراء تباين الأساليب باختلاف المتكلمين من ناثر وناظم، مع أنّ المفردات وقواعد صياغتها، وتكوين الجمل والتراكيب التي يستخدمها الجميع واحدة."[4]

فمع "أنّ أسلوب القرآن لم يبرح معهود العرب في لغتهم من ناحية المفردات والجمل والقواعد العامة في صياغة التراكيب، ونسج الكلام، وذلك لأنّ القرآن قد نزل بلغة العرب، إلا أنّه انفرد بمذهبه

---

[1]- مصطفى مسلم، مرجع سابق، ص 151.

[2]- ينظر، محمد الكوّاز، مرجع سابق، ص45 .

[3]- مصطفى مسلم، المرجع نفسه ، ص 151.

[4] - محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الكتاب العربي، ج ،2 ، ص 239.

الكلامي عن النهج العربي مباينًا لمألوفهم لا يشبه أي أسلوب من أساليبهم."[1]

ليأتي القرآن متميّزًا بأسلوبه الخاص منفردًا به عن سائر كلام البشر فهو نمط فذ في انتقاء الألفاظ، وإحكام التراكيب وفي البلاغة والفصاحة، وفي الروعة، وجمال الديباجة.

ولقد وجد الأسلوب القرآني مجالا طيّبًا في دراسات العديد من العلماء الذين اهتموا بإثبات إعجاز القرآن الكريم، في سبيل المقارنة بين أسلوب القرآن وغيره من كلام العرب.

وعليه فإنّنا نجد **الخطّابي** أحد هؤلاء العلماء الإعجازيين حيث أنّه أخذ في بيان وجوه الإعجاز في نظم القرآن وتأليفه وقد وصل إلى نتائج عظيمة الأثر في فهم الإعجاز.

"وقد بنى رأيه فيه على خصائص الأسلوب نفسه، وحدّدها في ثلاث جهات هي:

1. لفظ حامل.
2. معنى به قائم.
3. رباط لهما ناظم.

ثم إن القرآن في نظره صار معجزًا، لأنّه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنًا أصحَّ المعاني."[2]

فالإعجاز عنده "يكمن في روعة لفظه وحسن معناه، ودقة نظمه، وفي تأثيره في النّفوس وسريانه إلى القلوب حيث خصّ بلاغة القرآن بأنهما لا تجتمع لأحد من البشر ولا يجوز أن تأتي عليها قدرته، وإن كان أفصح النّاس وأعرفهم بطرق الكلام وأساليب البيان."[3]

ومعنى ذلك أنّ القرآن الكريم قد انفرد ببلاغته التي لا يقدر عليها أحد وإن كان عارفًا بأساليب وطرق الكلام.

---

[1]- حسن ضياء الدّين عتر، المعجزة الخالدة، دار البشائر الإسلامية، لبنان، ط3، 1415هـ، ص 199.

[2]- عبد العظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني، دراسة بلاغية، ج 1، مكتبة وهبة، ص 142- 143.

[3]- محمد الكوّاز، مرجع سابق، ص 39.

هذا وقد وجدنا "**الباقلّاني**" ينحو منحاه في ذلك من خلال وصفه لدرجات القول من حيث الاختلاف في البلاغة، والبراعة، والفصاحة، ثمّ نجده يذكر أنّ "نظم القرآن على تصرّف وجوهه وتباين مذاهبه.خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميّز في تصرّفه عن أساليب الكلام المعتاد."[1]

أي أن للقرآن أسلوبه الخاص الذي تميز به عن باقي الكلام، فهو المعجزة الكبرى لنبي الرحمةρ. "فهذا إذا تأمّله المتأمل تبيّن بخروجه عن أصناف كلامهم، وأساليب خطابهم إنه خارج عن العادة، وإنّه معجز، وهذه الخصوصية ترجع إلى جملة القرآن، وتميّز حاصل في جميعه."[2]

وفي هذا يذكر **الباقلّاني** "أنّ القرآن على اختلاف فنونه، وما يتصرف فيه من الوجوه والطرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب، والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد، وهذا أمر عجيب، تبين به الفصاحة وتظهر به البلاغة، ويخرج معه الكلام عن حد العادة ويتجاوز العرف."[3]

والمعنى من ذلك كلّه أنّ الإمام **الباقلّاني** "قد ركّز على الأسلوب المخصوص للقرآن الكريم، وحصر وجه إعجازه فيه. إذ نجده يقسم وجه الإعجاز البلاغي – وهو أن القرآن بديع النّظم، عجيب التأليف متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه – على عشرة معان، ومنها خروج أسلوب القرآن عن الأساليب المعتادة."[4]

وعليه فإنّ الأسلوب الذي اختص به القرآن المجيد كان أبين وجه من وجوه الإعجاز، فهو أحد الأسس التي بني عليها صرحه.

---

[1]- أبو بكر الباقلّاني، إعجاز القرآن، تحقيق، أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط 3، ذخائر العرب، 12، ص 46.

[2]- المرجع نفسه، ص 35.

[3]- المرجع نفسه، ص 38.

[4]- محمد الكوّاز، مرجع سابق، ص 40.

وفي ذات السياق نجد **حازم القرطاجنّي** "يدافع عن هذا التميّز الأسلوبي للقرآن الكريم من خلال رأيه في إعجاز القرآن، حيث ذهب فيه إلى أنّ الوجه في الإعجاز البلاغي من حيث استمرت الفصاحة و البلاغة فيه استمرار لا يوجد له فترة ولا يقدر عليه أحد من البشر، وفي كلام العرب لا تستمر الفصاحة والبلاغة في العالي منه إلا في الشيء اليسير، ثمّ تعترض الفترات الإنسانية فينقطع طيب الكلام ورونقه."[1]

معناه أنّ الإعجاز في القرآن"يكون من حيث استمرار اتّصاف الأسلوب القرآني بالفصاحة، والبلاغة في جميع الأنحاء التي اتّجه إليها القرآن الكريم، على خلاف ما في كلام العرب فلا تستمر الفصاحة والبلاغة في جميع أغراضه برتبة واحدة من العلوّ."[2]

أما القاضي **عيّاض** فقد تناول هو الآخر قضية الإعجاز ذاكرًا وجوهها، ومنها:

أولا: "حسن تأليفه، والتئام كلامه، وفصاحته ووجوه إيجازه، وبلاغته الخارقة عادة العرب.

ثانيًا: صورة نظمه العجيب، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب، ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه."[3]

وفي هذا نجده قد اعتبر أسلوب القرآن المباين لأساليب العرب وجهًا من وجوه الإعجاز، فيتفرّد عن ما عداه من الكلام يصل إلى درجة عليا وراقية يعجز عن محاكاته البلغاء وملوك البيان.

هذا وقد أسهم الإمام **عبد القاهر الجرجاني** إسهامًا كبيرًا في مسألة الإعجاز البلاغي باعتباره من أبرز علماء البلاغة، ومن خلال تعمّقه في هذه المسألة ضمن كتابيه (دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة) نرى الإعجاز لديه "يكمن في النّظم، والتأليف على طريقة مخصوصة وليس شيئًا خارجًا منه.

---

[1]- محمد الكوّاز، مرجع سابق، ص 43.

[2]- المرجع نفسه، ص 44.

[3]- عيسى بن ناصر الدريبي، مقال أدبي."نظرات في الإعجاز القرآني والتحدي"، مجلة جامعة الملك سعود، م 20، العلوم التربوية والدراسات الإسلامية (1)، 2008م - 1429هـ، ص 90

والنّظم عنده هو توخّي معاني النحو وأحكامه فيها بين الجمل والكلمات، وأنّ الوجوه البلاغية ليست أصلا في الإعجاز وإنّما تدخل في مقدماتها من حيث أنّها دعامة في بناء الأسلوب أو النّظم الرفيع، والقرآن إنّما أعجز العرب بهذا الوصف دون ما سواه."[1]

و في موضع آخر نجده يقول في ضرب من الاستعارة سماه الصميم الخالص، وهو أن يأخذ الشبه من الصور العقلية كاستعارة النور للبيان في قوله تعالى :"**فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ** ﴿١٥٧﴾ " (الأعراف: 157).

حيث نجده يقول:" واعلم أنّ هذا الضرب هو المنزلة التي تبلغ عندها الاستعارة غاية شرفها ويتّسع لها المجال في تفنّنها...وهاهنا تخلص لطيفة روحانية فلا يبصرها إلا ذوو العقول النافذة، والطباع السليمة، والنفوس المستعدة لأن تعي الحكمة، وتعرف فصل الخطاب."[2]

وعليه فإنّ "استعارات القرآن وتشبيهاته، وتقديمه وتأخيره، ومجازه وما وجد في القرآن ممّا تنتظمه فنون البلاغة الثلاثة، خارج عمّا وجد من أمثاله في كلام العرب شعره ونثره، فإذا اختلفت الخصائص خرج أصل فريد، ونوع متميّز، وذلك هو القرآن الكريم."[3]

وانطلاقًا ممّا سبق نستطيع القول أنّ اختلاف وجهات النّظر لدى العلماء الذين اهتموا ببيان طبيعة الإعجاز ودراسته كلّها كانت منصبة على وجوه هذا الإعجاز، وبالرغم من ذلك إلا أنّهم أجمعوا على أنّ الأسلوب القرآني يعد من أبرز وجوهه، وقد كان كتاب **الله** تعالى منفردًا بأسلوبه عن باقي الكتب السماوية الأخرى وعن سائر كلام البشر، وفي هذا التميّز والإنفراد يكمن سر إعجازه.

وزيادة على ما سبق من ذكر لنظرات بعض العلماء الإعجازيين القدامى حول الأسلوب القرآني المعجز، ننتقل إلى الثقافة النّقدية الحديثة لنجد العديد من العلماء العرب المحدثين قد اعتنوا بدراسة

[1]- عبد العظيم المطعني، مرجع سابق، ص 151 (بتصرف).

[2]- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق مصطفى شيخ، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت/ دمشق، ط 1، 2013م، ص 53 - 54.

[3]- محمد الكوّاز، مرجع سابق، ص 43.

إعجاز القرآن الكريم، وتبيان وجوهه، وفي هذا الصدد سنذكر كيف تناول هؤلاء العلماء الأسلوب القرآني، وهل اعتبروه كسابقيهم وجهًا من وجوه الإعجاز؟.

ولعلَّ من أبرز العلماء المحدثين من كتبوا في أوجه الإعجاز القرآني **مصطفى الرّافعي** الذي ألَّف كتابه (إعجاز القرآن والبلاغة النّبوية) وقد تناول فيه العديد من القضايا في حديث مستفيض حول موضوع الإعجاز، وقد تجلّى هذا الأخير عنده في بلاغة النّظم، حيث اعتبر أسلوب القرآن هو مادة الإعجاز، وأنّ "في القرآن مظهر غريب لإعجازه المستمر لا يحتاج في تعرّفه إلى رويّة ولا إعنات، وما هو إلا أن يراه من اعترض شيئًا من أساليب النّاس حتى يقع في نفسه معنى إعجازه، لأنّه أمر يغلب على الطبع وينفرد به فيبين عن نفسه بنفسه، لا يحتاج امرؤ في معرفته وتمييزه إلى أكثر من سماعه."[1]

والمعنى من ذلك أنّ القرآن يحمل مظهراً لإعجازه يلمسه من كان له دراية بأساليب النّاس المختلفة بغلبة فطرته وطبعه، ولا يحتاج في السعي لإدراكه إلا أن يسمعه، فذلك كما قال **الرّافعي**:" هو وجه تركيبه أو هو أسلوبه فإنّه مباين بنفسه لكلِّ ما عرف من أساليب البلغاء في ترتيب خطابهم وتنزيل كلامهم، وعلى أن يؤاتي بعضه بعضًا وتناسب كل آية منه أخرى في النّظم والطريقة على اختلاف المعاني وتباين الأغراض."[2]

ويضيف قائلا: " أنّه ليس من شيء في أسلوب القرآن ويغض من موضعه أو يذهب بطريقته أو يدخله في شبه من كلام النّاس، أو يردّه إلى طبع معروف من طباع البلغاء، وما من عالم أو بليغ إلا وهو يعرف ذلك ويعد خروج القرآن من أساليب النّاس كافة دليل على إعجازه."[3]

وعلى هذا فإنّ القرآن الكريم منفرد بأسلوبه عن باقي الكلام، فخالف كل ما عرف من أساليب النّاس.

[1]- مصطفى صادق الرّافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، المكتبة التوقيفية، ص 201.

[2]- المرجع نفسه، ص 201.

[3]- المرجع نفسه، ص 201.

وفي نفس السياق نجده يعطي الأسلوب القرآني الأهمية والسبق لأنّه هو سر إعجازه، وفي هذا يقول:" أنّ القرآن إنّما ينفرد بأسلوبه لأنّه ليس وضعًا إنسانيًا البتّة، ولو كان من وضع إنسان لجاء على طريقة تشبه أسلوبًا من أساليب العرب، أو من جاء بعدهم إلى هذا العهد ولا من الاختلاف فيه عند ذلك بدّ في طريقته ونسقه ومعانيه."[1]

قال تعالى:"**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾**" (النساء: 82).

وقد أدرك العرب الفصحاء هذا التمايز في الأسلوب القرآني عن غيره من الأساليب العربية، وهذا من خلال استيلاء القرآن على عقولهم، وقلوبهم ونفاذه إلى أفئدتهم وضمائرهم.

وزيادة على ما ذكرناه فإنّ **الرّافعي** "ينوّه إلى أنّ أسلوب القرآن نراه من اللين والمطاوعة على التقليب، والمرونة في التأويل، وقد فهمه عرب الجاهلية بالرغم من أنّهم لم يكن لهم سوى الفطرة، وفهمه الفلاسفة والعلماء، وزعماء الفرق."[2]

ثمّ إنّ هناك من العلماء المجتهدين ممن تركوا أثرًا في ميدان الإعجاز، ونذكر منهم **محمد عبد الله درّاز**، صاحب كتاب (النّبأ العظيم) الذي تطرّق فيه للأسلوب القرآني، فكان أوّل ما التفت إليه في دراسة أسلوب القرآن هو خاصية التأليف الصوتي في الشكل والجوهر، مع أنّنا نجده قد عبّر عن الإعجاز الباهر في أسلوب القرآن مشيراً إلى أنّه" كان ملتقى نهايات الفضيلة كلّها على تباعد ما بين أطرافها."[3]

---

[1]- مصطفى صادق الرّافعي، مرجع سابق، ص 203.

[2]- المرجع نفسه، ص 206 - 207 (بتصرف).

[3]- محمّد عبد الله درّاز، النّبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، دار الثقافة، الدّوحة، 1985م، ص 102.

ثمّ إنّه هنا "يجمع بين جمال اللّفظ، وجمال المعنى دون انفصال بين الجمالين في إطار الصورة الأدبية الرائعة في كتاب **الله** تعالى ليعرض بذلك تلك النهايات التي رآها، والتي قد جمع الأسلوب القرآني بين أطرافها المتباعدة كما سبق وأن أشرنا."[1]

والجدير بالذّكر هاهنا أنّ **درّاز** قد اعتنى بإبراز الخصائص الأسلوبية التي ميزت أسلوب القرآن عن غيره من الأساليب ومنها :

- " القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى.
- خطاب العامة وخطاب الخاصة.
- إقناع العقل وإمتاع العاطفة.
- البيان والإجمال.
- الوحدة في الكثرة."[2]

وللإشارة فإن هذه الخصائص التي ذكرناها كانت هي نهايات الفضيلة البيانية، التي التقت في كلام **الله** تعالى وأسلوبه رغم تباعد أطرافها التي لا تجتمع في أسلوب آخر من أساليب الكلام المختلفة .

هذا وسيكون لنا وقفة مع هذه الخصائص بشيء من التفصيل في بابها .

ثم إن هناك من العلماء من اهتم بأسلوب القرآن الكريم من أمثال **سّيد قطب** الذي تناول الموضوع في كتابه (التصوير الفني في القرآن الكريم)، فقد عقد في مؤلفه هذا فصلا كبيرا بعنوان التصوير الفني، استهله بقوله:" التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشّاخصة أو الحركة المتجددة."[3]

---

[1] – محمّد عبد الله درّاز ، مرجع سابق، ص 102 (بتصرف).

[2] – صلاح الدين عبد التواب، النقد الأدبي . دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن، دار الكتاب الحديث، 2003م ، ج 2، ص 96.

[3] – عبد الله عوض الخباص، سيد قطب الأديب الناقد، الشهاب، الجزائر، ص 306.

وبما أن التّصوير الفني كما أشار إليه **سّيد قطب** هو الأداة المميزة لأسلوب القرآن فإننا نجده يحدد مفهومه ليقول: " أنه هو تصوير باللّون، وتصوير بالحركة وتصوير بالتخيل، كما أنه تصوير بالنغمة تقوم مقام اللّون بالتمثيل، وكثيراً ما يشترك الوصف، والحوار وجرس الكلمات، ونغم العبارات وموسيقى السّياق، في إبراز صورة من الصور، تتملّاها العين والأذن، والحس والخيال، والفكر والوجدان."[1]

ويضيف قائلاً:" أن التصوير في القرآن قاعدة كبرى، فهو تصوير حي أي منتزع من عالم الأحياء، لا ألوان مجرّدة وخطوط جامدة، تصوير تقاس الأبعاد فيه والمسافات، بالمشاعر والوجدانيات، فالمعاني ترسم وهي تتفاعل في نفوس آدمية حيّة، أو في مشاهد من الطبيعة تخلع عليها الحياة."[2]

وعليه فإن **قطب** "قد اعتبر التصوير الفني القاعدة المتبعة في جميع الأغراض، فيما عدا غرض التشريع، والبحث ليس عن صور تجمع وترتب، ولكن عن قاعدة تكشف وتبرز."[3]

ثم إنّ أول ما يتّسم به أسلوب القرآن كما قال **أحمد بدوي** في كتابه (من بلاغة القرآن) :" هو القوة والجلال يكتسبها من انتقاء ألفاظ لا امتهان فيها ولا ابتذال، ومن استخدام ألوان التوكيد والتكرير، تشعر بهذه الفخامة في كل ما تناوله القرآن من الأغراض." [4]

حيث نجد أسلوب التنزيل يؤلّف بين الغرض الفني والغرض الديني بل إنه يتخذ الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني فيخاطب في الإنسان حاسته الوجدانية الدينية بلغة الجمال الفنية، فيظل جاريا على نسق واحد من السموّ في جمال اللفظ وعمق المعنى ودقة الصياغة وروعة التعبير رغم تنقله

[1] – سّيد قطب، التصوير الفني في القرآن، درا الشروق، القاهرة، 1968م ، ص 37.

[2] – المرجع نفسه، ص 37 – 38.

[3] – ينظر ، المرجع نفسه، ص 09.

[4] – أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، نهضة مصر، مارس 2005م، ص 186.

بين موضوعات شتى من التشريع والقصص، والمواعظ والحجج، والوعد والوعيد، وتلك حقيقة شاقة بل ظلت وستظل مستحيلة لدى فحول علماء العربية والبيان ."[1]

وزيادة على ما أوردناه من آراء ومفاهيم حول الأسلوب القرآني عند هؤلاء العلماء نخلص إلى أنّ هذا الأسلوب القرآني قد وجد مداه في ميدان دراسة الإعجاز البلاغي، حيث كان ملبيًا لغرض العلماء في التفريق بين القرآن الكريم وكلام العرب من حيث البلاغة المعجزة وتفرّده عن غيره من أنماط الكلام المتعارف عليه بين الناس بالعلوّ والسموّ والرّفعة.

[1] – ينظر، نورة محمد، البلاغة في نظم القرآن، موقع حلو البيان في لفظ القرآن .

2- الخصائص العامّة للأسلوب القرآني:

لقد انفرد القرآن الكريم بفصاحته، وبلاغة تأليفه، وامتاز عن غيره من الكلام الفصيح بالطريقة السويّة في تآلف ألفاظه وتأدية معانيه دون تنافر ولا اختلاف ليكون بذلك أسلوب القرآن هو (مادة الإعجاز) كما تبنّى ذلك العديد من العلماء والدّارسين.

وفي هذا المجال فإنّ للأسلوب القرآني من الخصائص والميزات ما يجعله فريدًا، وخارجًا عن المعروف من كلام العرب، وله من جميل الأثر في النّفوس ما يجعله أسمى وأرفع من أن تحيط بأسراره الألباب أو تعبّر عن كماله ودقّته الألسنة والأقلام،" فأسلوب القرآن معجز في وصفه، كما أنّه معجز في نفسه إذ تلتقي عنده نهايات الفضيلة كلّها على تباعد ما بين أطرافها."[1] ولعلَّ من أبرز الخصائص التي امتاز بها أسلوب القرآن ما سنأتي على ذكره فيما يلي:

2-1. القصد في اللّفظ مع الوفاء بحق المعاني:

إنّ هاتين الخاصيتين لا يقدر أي أحد من البلغاء مهما بلغ من الشّأن العظيم في الفصاحة والبلاغة أن يجمع بينهما، وعليه" فالذي يعمد إلى ادّخار لفظه والقصد فيه مع عدم الإنفاق منه إلا على حد الضرورة لابد أن يحيف عن المعنى ولا يوفيه حقّه، والذي يعمد إلى الوفاء بحق المعنى، وتحليله إلى عناصره وإبراز حقائقه لابد أن يطيل الكلام ويمدّ فيه." [2]

أي أنّ المرء مهما تحرّى الجمع بين الإيجاز في اللّفظ والقصد فيه، إلى جانب تمام المعنى والوفاء فيه لن يصل إلى درجة الكمال، وبلوغ الغاية المرجوّة لديه وإن كان أبلغ البلغاء.

"وآية ذلك أنّك تراه حين يتعقب كلام نفسه من حين إلى آخر يجد فيه زائدًا يمحوه وناقصًا يثبته ويجد فيه ما يقدم أو يؤخر حتى يسلك سبيله إلى النّفس سويًّا، وكلّما كان أنفذ بصرًا و أدق حسًّا،

[1]- محمد درّاز، مرجع سابق، ص 108.

[2]- فضل عباس، إتقان البرهان في علوم القرآن، دار الفرقان، الأردن، ط 1، 1997م ، ص 122.

كان أقلَّ في ذلك قناعة وأبعد همًّا، فهو يرى وراء جهده بلوغ غايته من الكمال البياني الذي يطمح إليه ويتعلّق به خياله ولا يناله ألبتَّة."[1]

"فهو سجين الفطرة الإنسانية كلّما وفّق في التقريب بين الغايتين- إيجاز في اللّفظ ووفاء في المعنى- في جملة أو جملتين يتربص به الطبع البشري فيدركه الإعياء، والفتور فيذبل كلامه، ويتلاشى بيانه."[2]

وخلافًا لذلك ما نراه في أسلوب القرآن الكريم من"تناسق معجز وتأليف بديع يجمع بين هاتين الغايتين على تمامهما بلا انقطاع، فالنّاظر للقرآن الكريم يجد فيه بياناً قد قدّر على حاجة النّفس أحسن تقدير..يؤدّي لك من كل معنى صورة نقية وافية. نقية لا يشوبها شيء مما هو غريب عنها، وافية لا يشذّ عنها شيء من عناصرها الأصلية ولواحقها الكمالية، وكل ذلك في أوجز لفظ وأنقاه."[3]

ونضيف في هذا السّياق ما ذكره **محمد درّاز** في قوله:" ففي كل جملة منه جهاز من أجهزة المعنى وفي كل كلمة منه عضو من أعضائه، وفي كل حرف منه جزء بقدره، وفي أوضاع كلماته من جمله وأوضاع جمله من آياته سر الحياة الذي ينتظم المعنى بأداته."[4]

ففي القرآن الكريم نجد المعاني الكثيرة تؤدى بقليل من الألفاظ.

2-2. خطاب العامّة و خطاب الخاصّة:

لقد تنبّه العديد من العلماء إلى هذه الخاصية التي امتاز بها أسلوب القرآن الكريم عن غيره من أنواع الخطاب الأخرى، إذ أنّ اجتماع الغايتين – مخاطبة العامة والخاصة معًا – لا نجده إلا في القرآن الكريم ويندر وجوده في غيره من الكلام، فلو تأمّلنا أي خطاب من الخطابات سنجده موجها لفئة واحدة على الخصوص،" إما للعامة أو للخاصة فمن أراد مخاطبة الأولى لابد أن ينزل إلى مستواهم

[1]- محمّد درّاز، مرجع سابق، ص 110-111 (بتصرف).
[2]- المرجع نفسه، ص111.
[3]- فضل عباس، مرجع سابق، ص 121.
[4]- محمد درّاز، المرجع نفسه، ص 112.

فيوضح ويبيّن ولو اتّخذ نفس الأسلوب لمخاطبة الخاصة لكان الكلام معيبًا، وفي المقابل لو أنّ المتكلم خاطب العامة باللّمحة والإشارة التي يخاطب بها الأذكياء لجاءهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم، فهذان المطلبان ليسا من إدراك البشر على الإطلاق"[1]، "فلا يأتي كلام واحد على أتمّه يخاطب به العلماء والعامة، والملوك والسوقة والأذكياء ومن دونهم، والصغير والكبير، والذكر والأنثى ليرى كل واحد منهم في الخطاب مطلبه ويدرك معانيه إلا في القرآن العظيم وحده." [2]

"فيقرأه العالم والعامي على حد سواء فيدرك الأوّل فصاحته، وتهيمن عليه بلاغته وتنجلي له علومه ومعارفه فيجد فيه زمام فكره ومنهج علمه، فيذعن لربه ويؤمن بشرعه"[3]، يقول تعالى:"**ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧**" (غافر:07)

– أما الثاني فيشعر بجلاله ويذوق حلاوته، ويستولي على بيانه، وتغشاه هدايته فيخشع قلبه وتدمع عيناه فينقاد له ويذعن هو الآخر."[4] إذ يقول عز وجل:"**وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝١٧**" (القمر : 17

2–3.إقناع العقل وإمتاع العاطفة :

لقد أودع **الله** تعالى في نفوس البشر قوّتان، قوّة تفكير وقوّة وجدان، حيث تبحث الأولى باستمرار عن الحق لمعرفته، وعن الخير للعمل به. أما الثانية فنراها تسجل إحساسها بما في الأشياء من لذّة وألم،

[1]– فهد الرّومي، خصائص القرآن الكريم، مكتبة العبيكان، الرياض ط 9، ص 34 .
[2]– المرجع نفسه، ص 34 (بتصرف) .
[3]– المرجع نفسه، ص 34 .
[4]– المرجع نفسه، ص 34 .

والملاحظ أنّ حاجة كل واحدة منهما غير حاجة الأخرى."[1]

والمقصد من هذا الكلام أنّ قوّة التفكير وقوّة الوجدان هما قوّتان تتنازعان في النّفس الإنسانية، فيتأرجح صاحب هذه النّفس بينهما فتجذبه تلك حينًا وتجذبه الأخرى حينًا آخر، فلا يمسكهما معًا ألبتَّة."[2]

ثمّ إنّ "المتكلم إن وفّى في كلامه بحق العقل نراه يبخس حق العاطفة وفي المقابل نجده إن وفّى بحق العاطفة بخس حق العقل، فنرى قوّة الوجدان تظهر بضعف قوّة التفكير فلا يتقن عقله فكرًا ولا يصيب هدفًا، أمّا إذا تناقصت قوّة الوجدان ظهرت قوّة الفكر بجلاء فكم ترك المهموم من طعام، وكم هجر من لذيذ المنام."[3]

وعليه فإنّنا "لم ولن نرى إنسانًا عالمًا كان أو حكيمًا أو أديبًا أو شاعرًا أو بليغًا لديه القدرة على أن يمسك بالأمر من طريقه، فيأتي بكلام واحد فيه حاجة هاتين القوّتين، وإن وجدتا عند أحد البشر فيستحيل عملهما معًا وحضورهما سويّة فلا يعملان إلا مناوبة كلّما قويت واحدة اضمحلت الأخرى وكاد ينمحي أثرها." [4]

وفي هذا يذكر **محمد درّاز** "أنّ البيان التام هو الذي يوفي لك هاتين الحاجتين ويطير إلى نفسك بهاذين الجناحين، فيؤتيها حظّها من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معًا."[5]

فذلك "لا تظفر به في كلام البشر أبدًا ولا هو من سنن **الله** تعالى في النّفس الإنسانية، بل اختصّ **الله** سبحانه بهذا كتابه القرآن الكريم فجمع في آياته بل الآية الواحدة قوة الحقيقة البرهانية، و قوة المتعة الوجدانية."[6]

---

[1] ينظر، فهد الرومي، مرجع سابق، ص 35.

[2]- المرجع نفسه، ص 36.

[3]- المرجع نفسه، ص 36.

[4]- ينظر، المرجع نفسه، ص 36.

[5]- محمّد دراز، مرجع سابق، ص 144.

[6]- ينظر، فهد الرّومي، المرجع نفسه ، ص37.

فهو كلام **الله** تعالى الذي" يمزج بين الحق والجمال معا، فهذا هو ما نجده في القرآن حيثما توجهنا فنراه في فصحة قصصه وأخباره لا ينسى حق العقل من حكمة وعبرة، ونراه في براهينه وأحكامه لا ينسى حظ القلب من تشويق وترقيق وتحذير وتنفير وتهويل وتعجيب... إذ نجد ذلك في مطالع آياته ومقاطعها." [1] يقول تعالى:" **تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾**" (الزمر:23) وقوله أيضا:"**لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾** "(الطارق: 13- 14).

ومعنى هذا أنّ "أسلوب القرآن يخاطب العقل والقلب معًا، وذلك عندما يسوق استدلاله سوقًا ويهز القلوب هزًا، ويمتع العاطفة إمتاعًا. بما ورد في طي هذه الأدلّة المسكتة المقنعة، حيث يقول تعالى:"**وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾** " (فصّلت : 39)."[2]

ثمّ إنّ المتأمل في هذا الأسلوب البارع الذي جمع بين إقناع العقل وإمتاع العاطفة يدرك ما له من الجمال الساحر والإعجاز الباهر الذي يستقبل عقل الإنسان وقلبه معا بأنصح الأدلّة وأمتع المعروضات.

وإذا نظرنا إلى القرآن الكريم وهو يسوق قصة يوسفU مع امرأة العزيز في قوله جلَّ شأنه: **وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾** " (يوسف : 23).

[1]- نور الدّين عتر، علوم القرآن الكريم، مطبعة الصباح دمشق، ط 1، 1993م، ص 214.

[2]- محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الكتاب العربي، ج 2، ص 247.

نلاحظ "قصة المراودة كيف اشتملت على العظات البالغة، والبراهين الساطعة، وآداب الشرف والعفاف والأمانة وخشية **الله** تعالى، وكيف قابلت بين الوقوع في الثلاثة:

1. مراودتها له.
2. إغلاق الأبواب.
3. دعوتها له (هيت لك)."[1]

"بدواعي العفة الثلاثة:

1. قوله (إنّه ربي).
2. قوله (أحسن مثواي).
3. قوله (إنّه لا يفلح الظالمون).

حيث نجد الآية قد صوّرت بجزالة لفظ، وفصاحة عبارة وسموّ معنى وهي في سياقة هذه القصة قد بسطت جوانب القضية وشخّصت الأحداث حتّى كأنّنا ننظر إليها من زاوية خفية."[2]

ثمّ إنّ "القرآن كلّه بجميع سوره وآياته الكريمة يسوق لنا القضايا ودقيق المعاني بأسلوب سائغ يسير على النّفوس أن تتجرع الأدلّة العقلية، ويرفّه عن العقول باللفتات العاطفية، ويوجّه العواطف والألباب معًا جنبًا إلى جنب لهداية الإنسان. ويقنع العقل ويمتع العاطفة في جمع لا يكون في كلام سواه فهو كلام **الله** تعالى." [3]

2– 4.الجمع بين الإجمال والبيان:

"الإجمال والبيان هما غايتان متقابلتان لا يمكن اجتماعهما في كلام واحد، فكلام الناس إما مجمل، وإما مبيّن، وإذا تساءلنا عن معنى اللّفظين يمكن أن نقول أن:

[1] – فهد الرّومي، مرجع سابق، ص 38.
[2]– ينظر، المرجع نفسه، ص 38.
[3] – المرجع نفسه، 38.

– المجمل:

هو ما له دلالة غير واضحة، أو ما يفتقر إلى البيان"[1] كقوله تعالى:"وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴿٤٣﴾ " "فلفظ (أقيموا) يفيد وجوب فعل متعيّن في نفسه، غير متعيّن بحسب اللّفظ، لهذا احتاج إلى مبيّن يبيّنه."[2]

– أما المبيّن:

فهو "ما يفرّق بين الشيء وما يشاكله فهو دلالة على المعنى المراد على سبيل البسط والتفصيل، والبيان هو إخراج الشيء من حيّز الإشكال إلى حيّز التجلّي والاتّضاح."[3]

وعليه "فإنّ الكلمة إما واضحة المعنى لا تحتاج إلى البيان، وإما خفّية المعنى تستدعي البيان والتّوضيح، ثمّ إنّ النّاس إذا عمدوا إلى تحديد أغراضهم لم تتّسع للتأويل وإذا أجملوها ذهبوا إلى الإبهام أو الإلباس. ولا يكاد يجتمع لهم هذان الطرفان في كلام واحد."[4]

وهذا على خلاف ما في القرآن وحده الذي يجمع بين المجمل والمبيّن فتسمع الجملة منه بيّنة ومجملة في آن واحد، وهذه عجيبة من عجائب أسلوب القرآن التي لا نجدها في كلام سواه.

والدليل هنا أنّ "القارئ يجد في الآية القرآنية من الوضوح والظهور ما يبوّئها درجة القمّة في البيان بذلك الأسلوب المعجز فيصل معناها إلى قارئها دون إعياء ذهن أو إعادة تلاوة، فيظّن أنّه قد أحاط بمعناها كاملا سويًّا إلا أنّه إذا أعاد النّظر مرة أخرى لاح له منها معان جديدة، وذلك هو سر الأسلوب القرآني ودلالة إعجازه الذي يخرق العادة."[5]

---

[1]– ينظر، جلال الدين المحلي، شرح الورقات في أصول الفقه، موقع نداء الإيمان. 1 شعبان 1438هـ.

[2]– محمد إسماعيل، دراسات في علوم القرآن، دار المنار، ط 2 ، 1999م – 1419هـ، ج1، ص 232 .

[3]– ينظر، جلال الدين المحلي، المرجع نفسه.

[4]– محمد درّاز، مرجع سابق، ص 117.

[5]– محمد عبد العظيم الزّرقاني، مرجع سابق، ص 203 – 204 (بتصرف).

وإذا "أمعنّا النّظر في معاني القرآن نجدها مستمرة في التعدّد حتّى نرى للآية الواحدة وجوهًا كثيرة فتشعّ كل آية من القرآن بألوان شتّى من الإشارات وتعطى الكثير من الإيحاءات مع أنّ التعبير واحد لم يتغيّر ومجمل لم يعمد في بيانه إلى نوع التطويل."[1]

فإذا "تأمّلنا معناها (البيّن) الذي يتبادر إلى الذّهن، ثمّ هذه المعاني التي (أجملت) فيها بعد إمعان النّظر فيكون المراد بهذا أنّ آيات القرآن المجيد تجمع بين الإجمال والبيان، وهذا أمر يستحيل العثور عليه في كلام عدى القرآن."[2]

2- 5. الكثرة في الواحدة:

ترتبط هذه الخاصية بما ذكرناه آنفًا في أول حديثنا عن عظمة تلك الثروة المعنوية في أسلوب القرآن على وجازة لفظه، فيضاف إليه أمر آخر قال عنه **محمد درّاز**" أنّه زينة تلك الثروة وجمالها ذلك هو تناسق أوضاعها، وائتلاف عناصرها، وأخذ بعضها بحجر بعض حتّى إنّها لتنتظم منها وحدة محكمة لا انفصام لها."[3]

حيث أنّ اتّصاف أسلوب القرآن "باجتناب سبيل الإطالة والتزام جانب الإيجاز بما يتّسع له جمال اللّغة هو الذي جعله أكثر الكلام افتنانًا أي أكثره تناولا لشؤون القول، وأسرعه تنقّلا بينها من وصف إلى تشريع إلى جدل، ثمّ أنّه جعل الفن الواحد منه يتشعب إلى فنون أخرى."[4]

إضافة إلى كون القرآن "أكثر الكلام تنويعًا في الموضوعات، فهو أكثره تلوينًا في الأسلوب ضمن الموضوع الواحد، فالنّاظر للسّورة منه يجد تنقّلا عجيبًا من معنى إلى معنى، بل نجد التنقل في المعنى الواحد بين الإنشاء، والإخبار، والإظهار والإضمار إلى غير ذلك من طرق الأداء على نحو لا عهد لأحد بمثله."[5]

---

[1]- صلاح الدّين عبد التّواب، مرجع سابق، ص 80.

[2]- ينظر، فهد الرّومي، مرجع سابق، ص 36.

[3]-محمد درّاز، مرجع سابق، ص 142.

[4]- صلاح الدّين عبد التّواب، المرجع نفسه، ص 81 (بتصرف).

[5] - المرجع نفسه، ص 81 .

ضف إلى ذلك فإن "هذا التنقّل لو كان في كلام البشر لرأيته في اضطراب وتعثّر مستمر، إلا أنّ القرآن مع ذلك يستمر في الحفاظ على تلك الطبقة العليا من متانة النّظم وجودة السبك، فنجده يسوغ من هذه الأفانين الكثيرة منظراً مؤتلفًا متناسقًا فيا له من تآلف محكم، وتناسق بديع."[1]

وهنا "يظهر بجلاء سر الإعجاز والفرق الشاسع بين أسلوب القرآن وغيره من كلام البلغاء وأرباب البيان الذين وإن أحسنوا وأجادوا في غرض كان منهم الخطأ والإساءة في نظم تلك الأغراض، مع أنّ الموضوعات تكون لديهم محدّدة في المناسبة والزمان."[2]

هذا وقد جاء القرآن على الخلاف تماما فعلى الرغم من أنّ الموضوعات شتّى والمناسبات كثيرة، والأزمنة متباعدة إلا أنّ أسلوبه يأتي في نسق محكم ورباط متماسك، وعذوبة كانت مبعثا للإحساس بالروعة والجمال ومظهرا من مظاهر الإعجاز.

2- 6. المرونة والمطاوعة في التأويل:

تعدّ هذه الخاصية من أبرز خصائص الأسلوب في القرآن الكريم، إذ نجد فيه من مرونة في التأويل، ومطاوعة على التقليب بحيث لا يدانيه أي أسلوب آخر من الأساليب ثمّ إنّ "هذه المرونة لا تحتمل الآراء المتصادمة والمتناقضة فهي إنّما تجعله ذو دلالة واسعة. سعة المورد الذي تزدحم عليه الوفود ثمّ تصدر عنه وهي ريّانة راضية وفي هذا يذكر **الرّافعي** في كتابه (إعجاز القرآن والبلاغة النّبوية) أنّ أسلوب القرآن فيه من اللين والمطاوعة على التقليب، والمرونة في التأويل، بحيث لا يصادم الآراء الكثيرة المتقابلة التي تخرج بها طبائع العصور المختلفة، فهو يفسّر في كل عصر بنقص من المعنى وزيادة فيه، واختلاف وتمحيص."[3]

[1]- صلاح الدّين عبد التّواب، مرجع سابق، ص 81.

[2]- ينظر، محمد درّاز، مرجع سابق، ص 143.

[3]- مصطفى صادق الرّافعي، مرجع سابق، ص 206.

وبذلك يكون أسلوب القرآن "شفاء لقلوب العامة، وكفاية للخاصة فظاهره يهدي النّاس ويملأ نفوسهم بالترغيب والترهيب إلى الجمال الأخاذ في التعبير والمشاهد القرآنية، أما باطنه العميق فيكفي أهل الفكر، ويشبع نهمهم إلى مزيد من الحكمة."[1]

وقد "فهمه عرب الجاهلية الذين لم يكن لهم إلا الفطرة، وفهمه كذلك من جاء بعدهم من الفلاسفة وأهل العلم، وفهمه زعماء الفرق المختلفة على ضروب من التأويل، وأثبتت العلوم الحديثة كثيراً من حقائقه التي كانت خفية وفي علم **الله** ما يكون من بعد."[2]

وفيه يضرب لنا **الرّافعي** مثلا من خلال الآية الكريمة التي يقول **الله** تعالى فيها:" **أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾** " (نوح: 15- 16).

وهنا نجده يذكر "أنّ العرب قد سمعت هذه الآية، ففهم بعضهم من نسقها أنّ القمر نور والشمس نور، ولكن اللّفظان اختلفا، النور والسراج، ليكون في ذلك التنويع البليغ.

ثمّ يفهم بعضهم الآخر أنّ القمر أضعف نوراً من الشمس لأنّ هذه الأخيرة قد عبّر عنها بالسراج الذي هو كالنور المنبعث من النّار."[3]

وقد يدقّق آخرون "فيرون أنّ الغرض من ذلك هو التعبير عن الشمس بأنّها تجمع إلى نور الحرارة فهذه فائدة في الحياة، أما الفائدة الأخرى هي أنّ النور نفسه لا تكاد تحسّ فيه الحرارة مثلما تحسّها في السراج ووهجه."[4]

---

[1]- مصطفى مسلم، مرجع سابق ، ص 152 (بتصرف).

[2] - مصطفى صادق الرّافعي، مرجع سابق، ص 206.

[3]- المرجع نفسه، ص 206 - 207 (بتصرف).

[4]- المرجع نفسه، ص 207.

ويضيف **الرّافعي** بعد هذا قائلا:" أنّ المفسّرين لم يتعدّوا المنزلة الثانية ولم يفطنوا حتى للثالثة ... ثمّ يفهم أهل القلوب الحديثة مع كل هذه الوجوه أنّ المراد من الآية هو إثبات ما كشفته هذه العلوم، من أنّ القمر جرم مظلم وإنّما يضيء بما ينعكس عليه من نور الشمس التي هي (سراجه) والنور لا يكون من ذات نفسه ابتداءً، فلابد من مصدر يبعثه فذكر في الآية السراج بعد النور دليلا على أنّه مصدره ذاك."[1]

وفي ذات السياق نرى "علماء السلف رضوان **الله** عليهم قد فهموا الآيات الكريمة التي قال فيها ربُّ العالمين:"**لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤** " (القيامة: 3-4).

ويقول أيضا:" **وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠** " (النازعات : 30). غير ما فهمه العلماء المتأخّرون بعد التطوّر الحاصل في العلوم الطبية والفلكية."[2]

وعليه فإنّ هذه المرونة في التأويل كانت من أسباب خلود القرآن الكريم حيث أنّ أساليب العرب منذ بزوغ شمس الإسلام قد اكتنفها الكثير من التغيير، وكان ذلك خلافًا لما للقرآن من بقاء وخلود لأسلوبه المتميّز بخصائصه الفريدة، والدليل هو أنّ القرآن الكريم كتاب الإنسانية الخالد، والمورد الذي تنهل منه كل الأمم على اختلاف الأزمان والعصور، فظل كلام **الله** تعالى رائع الأثر على ترامي الأجيال .

[1]- مصطفى صادق الرّافعي، مرجع سابق، ص 207.

[2]- مصطفى مسلم، مرجع سابق، ص 152.

المبحث الثاني :

سمات التّركيب الفنّي في الأسلوب القرآني

لقد حفل أسلوب القرآن الكريم بالكثير من السّمات الفنّية الرائعة وكان الهدف من إبراز هذه السّمات التي انفرد بها أسلوب الكتاب المجيد هو الوقوف عند المظهر الإعجازي الذي يتجلى في فنّيته وبلاغته الباهرة التي ألهمت العديد من دارسي الإعجاز الكشف عن تلك السمات وإبرازها .

وسنورد أهم ما اتّسم به أسلوب القرآن من الجانب الجمالي والفنّي.

1.جمال التأليف الصّوتي واللّغوي:

"إنّ أول ما يستدعي انتباهنا في القرآن الكريم هو خاصية تأليفه الصوتي شكلاً وجوهرًا.

– أمّا في الشكل: فنقول أنّ خاصية التأليف الصّوتي للقرآن هذه هي أول ما يسترعي سامع كلام **الله** تعالى وهو يتلى حق تلاوته بما فيه من الاتّساق والائتلاف في حركاته، وسكناته، ومدّاته، وغنّاته واتصالاته وسكتاته اتّساقًا عجيبًا وائتلافًا رائعًا بديعًا. فهو يستهوي النّفس عند سماعه بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم أو منثور"[1]، ذلك أنّ "السامع للقصيدة من الشّعر وهي متّحدة الأوزان في أبياتها وأشطرها قد يطرب لها عند سماعها أوّل مرّة ثم ما يلبث إلا وقد مجّها سمعه وملّها طبعه إذا كرِّرت وأعيدت عليه بتوقيع واحد، بينما يكون من القرآن في لحن متنوّع ومتجدّد، فلا يعروه منه على كثرة ترداده ملالة ولا سأم، ليبقى منه سامعه في طلب المزيد دائمًا."[2]

ثمّ إنّ هذا "الجمال التوقيعي في لغة القرآن لا يخفى على أحد، ممّن سمعه حتى الذين لا يعرفون لغة العرب.

[1]– محمد درّاز ، مرجع سابق، ص 102.

[2]– المرجع نفسه، ص 102 (بتصرف) .

ثمّ إنّ أوّل شيء أحسّته الأذن العربية هو ذلك النظام الصوتي البديع الذي قسّمت فيه الحركة والسكون تقسيمًا منوّعًا يجدد نشاط السامع لسماعه ووزعت في تضاعيفه حروف المد والغنّة توزيعًا بالقسط يساعد على ترجيع الصوت به وتهادي النّفس فيه ...إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى فيجد عندها راحته العظمى."[1]

ولعلَّ المتتبع لهذا الجمال الصوتي في القرآن يجده قد تألّف تآلفًا عجيبًا تتبيّن من خلاله تلك الخاصية الصوتية في القرآن الكريم التي تميّز بها أسلوبه عن غيره من الأساليب.

– أما في الجوهر:

فهو أنّ "جوهر تأليف القرآن الصوتي يكمن في نظم حروفه الخارجة من مخارجها الصحيحة التي تفاجأ سامعها بلذّة أخرى تكون في نظم الحروف ورصفها، وترتيب أوضاعها فيما بينها: هذا ينقر، وذاك يصفر، وثالث يهمس ورابع يجهر، وآخر ينزلق على النّفَس، وآخر يحتبس عنده النّفَس فنرى كما يقول **درّاز** الجمال اللّغوي ماثلا أمامك في مجموعة مختلفة مؤتلفة لا كركرة ولا ثرثرة ولا رخاوة، ولا معاطلة ولا تناكر، ولا تنافر. "[2]

يبدو أنّ "هذه المخارج والصفات إنّما أخذ أكثرها من ألفاظ القرآن لا من كلام العرب وفصحائهم. ثمّ إنّ طريقة النّظم التي اتّسقت بها ألفاظ القرآن، وتألّفت لها حروف هذه الألفاظ، إنّما هي طريقة يتوخّى بها إلى أنواع من المنطق وصفات من اللهجة لم تكن على هذا الوجه من كلام العرب، حتى ظهرت فيه أوّل شيء على لسان النّبي ρ ، فجعلت المسامع تسترسل في الإصغاء للقرآن بانسجامه و اتّزانه على أجزاء النّفَس مقطعاً مقطعًا ونبرة نبرة."[3]

---

[1]– محمد درّاز، مرجع سابق، ص 103.

[2]– المرجع نفسه، ص 103 (بتصرف).

[3]– مصطفى صادق الرّافعي، مرجع سابق، ص 212 – 213.

وزيادة على هذا يذكر **الرّافعي** أنّ "القرآن لما قرأ على العرب، رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جمله ألحانًا لغوية رائعة، كأنّها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة، قراءتها هي توقيعها، لم يفتهم هذا المعنى. وأنّه أمر لا قبل لهم به، وقد كان ذلك أبين في عجزهم."[1]

وفي هذا الشأن يذكر صاحب النّبأ العظيم أنّ النّاس، إنّما عجزوا عن إخضاع أسلوب القرآن لألسنتهم وأقلامهم لأن"فيه المنعة الطبيعية التي كفت ولا تزال تكفُّ أيديهم عنه، وذلك لغريب تأليفه في بنيته وما اتّخذه في رصف حروفه وكلماته، وجمله، وآياته، من نظام له طابع خاص به، خرج فيه عن هيئة كل نظام تعاطاه النّاس أو يتعاطوه، فلم يجدوا سبيلا يسلكونه إلى تذليل منهجه.

هذا وقد كان هذا النّظم هو الذي صفّى طبائع البلغاء بعد الإسلام وتولّى تربية الذوق اللّغوي فيهم."[2]

فلولا القرآن وهذا الأثر من نظمه العجيب، لذهب العرب بكل فضيلة في اللّغة بل لما بقيت اللّغة نفسها.

2. الملائمة بين الألفاظ والمعاني:

إنّ النّاظر "للألفاظ من حيث هي أبنية صوتية مادتها الحروف وصورتها الحركات والسكنات، يرى أنّها تمثل الأداة لتصوير المعاني ونقلها من نفس المتكلم إلى نفس المخاطب بها."[3]

حيث نجد العلماء في هذا الباب يقفون أمام مظهر من مظاهر الإعجاز في كتاب **الله** تعالى، ألا وهو التلاؤم بين اللّفظ والمعنى، واستدعاء كل منهما للآخر على أتّم ما يكون.

حيث "يتوقف هذا التلاؤم على حسن اختيار اللّفظ المناسب للمعنى وهو مدار البلاغة كلّها، ومن أبرز سمات أسلوب القرآن وقد كان **الرّماني** من أوّل الذين التفتوا إلى هذا الوجه من وجوه البلاغة

[1]- مصطفى صادق الرّافعي، مرجع سابق ، ص 214.

[2]- - محمد درّاز، مرجع سابق، ص 105.

[3]- المرجع نفسه، ص 106 (بتصرف) .

ليعدَّه مظهرا للإعجاز، وقد اعتبره من جاء بعده من أبرز سمات الجمال في الأسلوب القرآني.

وقد نظر **الرّماني** إلى هذا التلاؤم "من خلال الوضع التركيبي بين الكلمات وبعضها وكان قصده هو تعديل الحروف في هذه الكلمات عند التركيب حتى تسلم من التنافر."[1]

واعتبارًا لهذا نجده يقسم التأليف إلى ثلاثة أقسام :

- "متلائم في الطبقة العليا (وهو القرآن كلّه).
- المتنافر ومثاله قول الشاعر:

وقبــرُ حربٍ بمكان قفـــــــرِ ** وليس قُربَ قبرِ حَربٍ قبـــــرُ**

- المتلائم في الطبقة الوسطى ومثاله قول **أبي حيّة النميري:**

رمتْني وسِتْرُ الله بيني وبينهـــــا ** عَشيّةَ آرامِ الكناس رميـــــــمُ.** "[2]

ومن خلال هذا نرى أنّ **الرّماني** قد اعتبر هذا التلاؤم "بابًا من أبواب بلاغة القرآن الفائقة، وهو عنده نقيض للتنافر، مع النّظر إليه باعتبار شكله العام في وضع اللّفظة مكانها في الجملة من حيث الدلالة على المعنى المراد، فيكون هذا المدى من التأثير في النفس نتيجة ذلك الأسلوب المتلائم في ألفاظه ومعانيه."[3]

هذا وقد أشار **الرّماني** إلى أهمية هذا التلاؤم بقوله:" والفائدة من التلاؤم حسن الكلام في السّمع، وسهولة اللّفظ، وتقبّل المعنى له في النّفس لما يرد عليها من حسن الصورة وطريق الدلالة، ومثل ذلك مثل قراءة الكتاب في أحسن ما يكون من الخط والحروف، وقراءته في أقبح ما يكون من الحرف والخط، وذلك متفاوت في الصورة وإن كانت المعاني واحدة."[4]

---

[1] – محمّد أبو موسى، الإعجاز البلاغي، دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، مكتبة وهبة، القاهرة، ط 2، 1997م- 1418هـ، ص 140.

[2]– المرجع نفسه، ص 140- 141.

[3]– صلاح الدّين محمّد عبد التّواب، مرجع سابق، ص 129.

[4]– ينظر، أبو الحسن الرمّاني، النّكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، للرّماني و الخطابي و الجرجاني، ت.محمد خلف و محمد زغلول، دار المعارف، مصر، ص 96.

وعليه فإنّ السبب في التلاؤم "تعديل الحروف في التأليف، فكلّما كان أعدل كان أشدّ تلاؤمًا، وأمّا التنافر فالسبب فيه ما ذكره الخليل من البعد الشديد أو القرب الشديد، ومعنى ذلك أنّه إذا بعد البعد الشّديد كان بمنزلة الطفر. وإذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة المشي المقيّد، لأنّه بمنزلة رفع اللّسان وردّه إلى مكانه، وكلتا الحالتين صعبة على اللّسان، ولعل السهولة من ذلك في الاعتدال."[1]

وفي ذات الشأن يقول **الرّماني** في إشارة منه إلى أنّ التلاؤم "في التعديل من غير بعد شديد أو قرب شديد، وذلك يظهر بسهولته على اللّسان، وحسنه في الأسماع، وتقلّبه في الطباع، فإذا انضاف إلى ذلك حسن البيان في صحة البرهان في أعلى الطبقات ظهر الإعجاز للجيّد الطباع البصير بجواهر الكلام."[2]

أمّا **الباقلّاني** فنجد لديه مفهوم التلاؤم واضحًا من خلال ما قصده عندما تناول المعاني التي شرح بها تناهي القرآن في بلاغته إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه... ثمّ إنّ بهذا التلاؤم قد خرج الأسلوب القرآني "عن الوحشي المستكره والغريب المستنكر، وجعله قريباً إلى الإفهام يبادر معناه لفظه إلى القلب ويسابق المغزى منه عبارته إلى النّفس، وهو مع ذلك ممتنع المطلب عسير المتناول..."[3]

وعليه فإنّ العلماء قد أطالوا الحديث حول "مشاكلة اللّفظ للمعنى، وحسن الملائمة بينهما، ولعل الذي أرادوه هو دقّة اللّفظ في أداء معناه، وحسن مقدرته على أن ينقل الفكرة إلى القارئ أو السامع ليستقر في النّفوس."[4]

حيث "يعتمد التلاؤم على اختيار الكلمات ليس من ناحية المعاني فحسب بل من النّاحية الفنّية أيضاً من خلال إيحائها بالأفكار المرتبطة بها وكذا بالوقع الذي تحدثه في سياق الكلام، وتجدر الإشارة إلى أنّ في التلاؤم نوعان :

---

[1]-ينظر، أبو الحسن الرّماني، مرجع سابق ، 94 – 95 – 96.

[2]- المرجع نفسه ، ص 96.

[3]- أبو بكر الباقلّاني، إعجاز القرآن، تحقيق، أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط 3 ذخائر العرب، 12، ص 46.

[4] - صلاح الدّين عبد التّواب، مرجع سابق، ص 129- 131 (بتصرف).

– **الأوّل**:وتبدو فيه الألفاظ ملائمة لبعضها ليس فيها لفظة نافرة من أخواتها مراعاة لحسن الجوار.

– **الثاني**: وفيه يتلاءم اللّفظ مع المعنى المراد، فإن كان فخماً كانت ألفاظه فخمة، أو جزلا فجزلة أو غريباً فغريبة أو متداولاً فمتداولة."[1]

ومن الأكيد أنّ كلا النّوعين على أروع ما يكون من التلاؤم في أسلوب الذّكر الحكيم الذي امتاز به عن باقي الأساليب.

3– الوحدة الفنّية في أسلوب القرآن:

لقد لفتت هذه الظاهرة أنظار العلماء في دراساتهم حول القرآن للتعرف على نواحي الإعجاز فيه، "وبما أنّ القرآن فيه من فنون الأحكام الفرعية، والإعتقادية والخلقية، وفيه من فنون الوعظ وقصص الأنبياء والصالحين والطائعين، والعاصين، وبما فيه من آيات في العبادات والمعاملات إلا أنّنا نراه يجمع بين هذه الفنون كلّها في سورة واحدة في بنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلّية على أسس وأصول وشعب وفصول."[2]

"وفي التنقّل بين أجزائها لا نحسّ بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق ولا بشيء من الانفصال، بل نرى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة وبين آحاد الجنس الواحد نهاية الالتحام والتنسيق. وعلى هذا المنوال توالت سور القرآن المجيد."[3]

وهذا هو الذي وجّه عناية العلماء ودفعهم إلى الاهتمام بالوحدة الفنّية في أسلوب القرآن. وقد كان **الباقلّاني** أوّل الذين تنبّهوا في دراساتهم للوحدة الفنّية في القرآن الكريم التي ميّزت أسلوبه.

"ولم يكتفي **الباقلّاني** في دراسته للقرآن بتلك النّظرات الجزئية في الآيات وإنّما تناول السورة بأكملها للوقوف على الخصائص الفنّية في القرآن ككل متكامل.

---

[1]– صلاح الدّين عبد التّواب، مرجع سابق، ص 129–131 (بتصرف).

[2] – المرجع نفسه، ص 144 (بتصرف).

[3] – المرجع نفسه، ص 144– 145.

وقد حاول الإمام في كتابه (إعجاز القرآن) وهو يعرض الآيات من خلال السورة كلّها وإبراز النّواحي الجمالية فيها، في تأكيد منه أنّ السورة لا الآية وحدها هي المظهر الكامل للإعجاز."[1]

حيث نجده يقول في هذا الشأن:" لو لم تكن إلا سورة واحدة لكفت في الإعجاز، فكيف بالقرآن العظيم."[2]

ومن خلال قوله نستشف "أنّ القرآن الكريم في مجموعه قد تماسكت آياته وسوره، وترابطت في وحدة فنّية رائعة متّخذة من الوسائل ما يحقق لها تلك الرابطة الوثيقة في الأسلوب القويم، فإذا كانت الآية الواحدة من القرآن معجزة فإنّ تماسك الآيات والسوّر على هذا الوضع العجيب لهو الآية العظمى في الإعجاز."[3]

وقد دفع القول بالوحدة الفنّية "دراسة تلك الوسائل المتّصلة بها وذلك من خلال ما برز في الدراسات القرآنية من اهتمام بتلك المسائل الهامة، من أمثال: مراعاة التناسب بين الآيات والسور، ومراعاة المواطن التي يحسن فيها الفصل والوصل، ثمّ براعة الاستهلال، وحسن الختام، وبراعة التنقّل وغيرها مما يخدم فكرة الوحدة الفنّية كأبرز سمة من سمات أسلوب القرآن."[4]

وفي هذا الشأن نجد **الباقلّاني** يشير إلى مراعاة تلك الوسائل بقوله:" فأجّل الرأي في سورة سورة، وآية آية، وفاصلة فاصلة، وتدبّر الخواتم والفواتح، والبوادي والمقاطع، ومواضع الفصل والوصل، ومواضع التنقّل والتحوّل ثمّ اقض ما أنت قاض."[5]

ولعل من أهم الموضوعات التي تخدم فكرة الوحدة الفنّية في أسلوب القرآن موضوع تناسب الآي والسوّر.

---

[1] صلاح الدّين عبد التّواب،مرجع سابق، ص 145 (بتصرف).

[2]- الباقلّاني، إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص 195.

[3]- صلاح الدّين عبد التّواب، المرجع نفسه، ص 145 (بتصرف).

[4]- ينظر،المرجع نفسه، ص 145- 146.

[5]- الباقلّاني، إعجاز القرآن، المرجع نفسه، ص 193.

وقد وقف عليه العديد من العلماء والمفسّرين ووضعوه في دراستهم موضع العناية والتقدير من أمثال الشيخ **برهان الدين البقاعي** في كتابه (نظم الدّرر في تناسب الآية والسوّر)، والإمام **فخر الدين الرّازي** الذي يقول عن سورة البقرة:" ومن تأمّل في لطائف هذه السورة، وفي بدائع ترتيبها علم أنّ القرآن كما أنّه معجز بحسب فصاحة ألفاظه، وشرف معانيه، فهو أيضًا بسبب ترتيبه ونظم آياته، ولعلَّ الذين قالوا إنّه معجز لسبب أسلوبه أرادوا ذلك..."[1]

أما إذا انتقلنا إلى الإمام **السيوطي** فسنجده هو الآخر قد "عقد فصلا للمناسبة وجعل مرجعها في الآيات ونحوها إلى معنى رابط، إمّا عام أو خاص، عقلي أو حسّي أو خيالي إلى غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلاؤم الذهني، كالسبب والمسبّب، والفائدة أنّ المعنى الرابط جعل أجزاء الكلام بعضها آخر بعناق بعض، فيقوى الارتباط ويصبح التأليف كالبناء المحكم، المتلائم الأجزاء."[2]

وعليه نرى أنّ **السيوطي** قد "أكثر من ذكر حديث الربط وأسبابه بين السوّر و الآيات في القرآن الكريم الأمر الذي يدل بجلاء أن العلماء منذ القديم لم يغفلوا الحديث عن تلك الوحدة القرآنية ودواعيها إذ لم يكن القدامى وحدهم من تنبّه إلى هذه الظاهرة، حيث نجد المحدثين أيضا قد وقفوا جهودهم لدراسة تلك الوحدة الفنية في القرآن المجيد باعتبارها من أبرز سمات أسلوب الذكر الحكيم."[3]

ومن بين هؤلاء المحدثين نذكر **محمد عبده** الذي نجده يعقب في كتابه (تفسير المنار) على تلك السمة البارزة في أسلوب القرآن وذلك من خلال قوله:" وهذا الضرب من البيان ممّا امتاز به القرآن على سائر الكلام فإنّك لترى فيه من الاستدراك والاحتراس قد جاءت من خلال القصص وسياق

[1]- صلاح الدّين عبد التّواب، النّقد الأدبي، مرجع سابق، ص 147.
[2]- المرجع نفسه، ص 147 (بتصرف).
[3]- المرجع نفسه، ص 150.

الأحكام ...تقرأ الآية في حكم من الأحكام أو عظة من المواعظ أو واقعة فيها عبرة من العبر، فتراها مستقلّة البيان، ولكنّها باتّصالها بما قبلها قد أزالت وهمًا، أو تمّمت حكماً."[1]

"أما **رشيد رضا** فقد عدّ هو الآخر الوحدة الفنّية في القرآن – ذلك الرباط القوي المحكم من سوّر القرآن وآياته – وجهًا من وجوه الإعجاز، فأكّد أنّ إعجاز القرآن يكمن في أسلوبه وتركيبه."[2]

والجدير بالذكر أنّ طريقة التركيب في أسلوب القرآن ليبلغ مرتبة الإعجاز كفكرة قد تنبّه إليها العلماء في دراستهم لقضية الإعجاز القرآني أمثال **مصطفى الرّافعي** الذي رأى أن "في القرآن مظهر غريب لإعجازه المستمر ...ذلك هو وجه تركيبه، أو هو أسلوبه...أنّه يؤاتي بعضه بعضًا، وتناسب كل آية منه كل آية أخرى في النّظم. والطريقة على اختلاف المعاني وتباين الأغراض... فكأنّه قطعة واحدة على خلاف ما نجده في كلام كل بليغ من التّفاوت باختلاف الوجوه التي يصرفه إليها."[3]

أمّا صاحب النّبأ العظيم **محمد درّاز** فنجده هو أيضاً قد تناول مسألة الوحدة الفنّية في القرآن الكريم في دراسته تلك حيث نجده يقول من خلالها "أنّه إذا كان للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات، وفي أساليب ترتيبه معجزات، وفي نبوءاته معجزات، وفي تشريعاته الخالدة معجزات وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات ومعجزات، فإنّه في ترتيب آية على هذا الوجه لهو معجزة المعجزات."[4]

ومن خلال هذا نرى أنّ **درّاز** قد أولى اهتمامًا بالوحدة القرآنية وعدّها معجزة كباقي المعجزات في القرآن الكريم.

---

[1]- صلاح الدّين عبد التّواب، مرجع سابق، ص 151.

[2]- المرجع نفسه، ص 152.

[3]- مصطفى الرّافعي، مرجع سابق، ص 201.

[4]- محمد درّاز، مرجع سابق، ص 211.

4- إبداع النّظم وإحكام التأليف في أسلوب القرآن:

إنّ من أبرز ما أجمع عليه علماء الإعجاز في دراساتهم لأسلوب القرآن "ذلك النّظم البديع، والتأليف المحكم الذي لا نبصر نموذجه الأكمل والأجمل إلا في كتاب الله تعالى، ثمّ إنّ الالتفات إلى قيمة النّظم واعتباره من المظاهر الفنّية والجمالية في أسلوب القرآن، إنّما كان بعد تفحّص التراكيب والأساليب المختلفة للوقوف على ما تحمله من سمات فنّية."[1]

وكخطوة للوصول إلى "تلك النظرة الجمالية للنّظم قامت تلك الدراسات الأوّلية التي تتجلى في العديد من الآراء القائمة حول فكرة اللّفظ والمعنى وإلى أي منهما يرجع الفضل في الكلام، والحكم بالجمال. فهناك من انتصروا للمعنى مغفلين شأن اللّفظ، ومنهم من انتصر للّفظ وأغفل المعنى، ومنهم من ساوى بينهما، وقد نظر آخرون إلى الألفاظ من جهة دلالتها على معانيها في نظم الكلام."[2]

والمهم من ذلك أنّ الذين حفلوا بالمعنى قد قصدوا تقديمه على الألفاظ دون الإغفال من شأنها، فأنزلوها في الأهمية منزلة تلي المعاني، وفي هذا الشأن نرى **الجاحظ** وهو يردّ على **أبي عمرو الشيباني** في انتصاره للمعنى فقط، فيقول:" المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي، والمدني، وإنّما الشأن في إقامة وتخير اللّفظ وسهولة المخرج وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنّما الشعر صياغة وضرب من النسيج، وجنس من التصوير."[3]

ثمّ يعدّ **الجاحظ** بذلك " أوّل القائلين بقصر الحسن على الأسلوب والصياغة دون المعنى، حيث صرّح أنّ شأن الكلام شأن التصوير والصياغة حيث يقول: في كتابنا المنزّل الذي يدلُّ على أنّه صدق نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد، مع ما سوى ذلك من الدلائل التي جاء بها من جاء به..."[4]

---

[1]- صلاح الدّين عبد التّواب، النّقد الأدبي، مرجع سابق، ص119 .

[2]- المرجع نفسه، ص 119 (بتصرف).

[3]- المرجع نفسه، ص 119 - 120.

[4]- وليد قصاب، في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، دار الفكر، دمشق، ط 2، 2014 م، ص 97.

لتتبلور بذلك فكرة النّظم لديه "كفكرة لفظية تعتمد على حسن الصياغة وكمال التركيب، ودقة تأليف اللّفظ، وجمال النّظم. وقد ظهرت بوادر هذه الفكرة في كتابه المفقود (نظم القرآن)، إذ لم تكن مسألة النّظم قد وصلت إلى مرحلة كافية من النضج والاكتمال بعد."[1]

وتعد فكرة النّظم من أكثر الأفكار تداولا بين علماء البلاغة والباحثين في أسلوب القرآن وإعجازه، حيث نجد **الخطّابي** يشير إلى النّظم إشارة ليست بالعميقة قائلا: "اعلم أنّ القرآن إنّما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ، وفي أحسن نظوم التأليف، مضمناً أحسن المعاني."[2]

وفي هذا تتجلى "عناصر الكلام الثلاثة التي لا يقوم إلا بها، وهي: اللّفظ والمعنى، والنّظم، وقد كان هذا الأخير هو أهمّها، وفي هذا المعنى نجد **الخطّابي** يقول: يقوم الكلام بهذه الثلاثة:

لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم، وإذا تأمّلت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئًا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظمًا أحسن تأليفًا وأشدّ تلاؤمًا وتشاكلا من نظمه."[3]

أما القاضي **عيّاض**" فقد ذكر أوجهاً للإعجاز القرآني، أحدها صورة نظمه العجيب والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب، ومنهاج نظمها ونثرها الذي جاء عليه،و وقفت عليه مقاطع آياته،و انتهت إليه فواصل كلماته، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له..."[4]

والواضح من ذلك أنّ معنى النّظم هو تفرّد القرآن بأسلوب معيّن. خالف كل أساليب كلام العرب.

[1]- ينظر، وليد قصاب، مرجع سابق، ص 98.

[2]- أبو سليمان الخطّابي، بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، الرماني والخطابي والجرجاني، تحقيق، محمد خلف الله ومحمد زغلول، دار المعارف، مصر، ط 3، ص 27.

[3]- المرجع نفسه، ص 27.

[4]- وليد قصاب، المرجع نفسه، ص 98.

وقد أشار **الباقلّاني** إلى النّظم هو الآخر وتناوله في دراساته حول القرآن و إعجازه معتبراً إيّاه أحد وجوه الإعجاز القرآني، وفي ذلك يقول:" والوجه الثالث أنّه بديع النّظم، عجيب التأليف، متَناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه..."[1]

وعليه فإنّنا نجد **الباقلّاني** قد صبّ كل اهتمامه على مسألة النّظم، والدليل على ذلك ما لاحظناه في قوله من اعتبار النّظم البديع في القرآن وجهًا ثالثًا من وجوه الإعجاز.

ثمّ إنّ فكرة النّظم تظل محط اهتمام العديد من علماء البلاغة والإعجاز وزيادة على ما ذكرنا نجد **الرّماني أبو الحسن** قد "تبنى فكرة أنّ أعلى مراتب البيان هو ما اكتملت فيه البلاغة من جمال التعبير وروعة الأداء من تعديل النّظم حتّى يحسن في السمع، ويسهل في اللسان وتتقبله النّفس."[2]

ثمّ نجده "يقف عند المعنى والعبارة والصورة، ويستنبط النّكتة من الآية في كتابه، (النّكت في إعجاز القرآن) الذي أخرجه لنا في إطار من البيان البلاغي، إذ تعتبر البلاغة لديه وجهًا للإعجاز، إضافة إلى ذلك فقد اعتبر النّظم طريقًا إلى البلاغة كأحد الوجوه التي تدخل ضمن مسألة إعجاز القرآن."[3]

وقد أشار **الأصبهاني** في نفس السياق إشارة أوضح إلى فكرة النّظم، "وتبيان أنّ الإعجاز المتعلّق بفصاحة القرآن وبلاغته ليس متعلّقًا بلفظه ومعناه، ويحتج في ذلك بأنّ ألفاظه هي ألفاظهم، ومعانيه قد وجد جلّها في الكتب المتقدمة، إنّما إعجازه يكمن في صورته التي هي النّظم المخصوص."[4]

وبناء على ما ذكرناه نلحظ أنّ النّظم البديع والتأليف المحكم كان من أبرز سمات أسلوب القرآن، وقد أوردنا تلك الأقوال لأولئك العلماء الذين كانوا قد تناولوا هذه الميزة ألا وهي النّظم والتأليف في دراساتهم ومؤلّفاتهم حول الإعجاز القرآني.

---

[1]- الباقلّاني، إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص 35.

[2]- فهد الرّومي، مرجع سابق، ص 22.

[3]- المرجع نفسه، ص 22 (بتصرف).

[4]- المرجع نفسه، ص 99 (بتصرف).

إلا أنّ فكرة النّظم قد أخذت طريقها إلى التجلّي والوضوح مع كل من القاضي **عبد الجبّار، وعبد القاهر الجرجاني.**

وانطلاقًا من هذا فإنّ القاضي **عبد الجبار** قد "رسم معالم فكرة النّظم القرآني في كتابه (المغني في أبواب التوحيد والعدل) حيث نصّ فيه على أنّ أفراد الكلام لا تظهر فيها الفصاحة وإنّما في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولابد مع الضم أن يكون لكل كلمة صفة."[1]

وفي هذا نجده يقول:" وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالإعراب...وقد تكون بالموقع...ولابد من هذا الاعتبار في كل كلمة، ثمّ لابد من اعتبار مثله في الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض."[2]

ثمّ إنّ **عبد الجبّار** "قد فسّر بدوره فكرة النّظم تفسيراً أدق ممن سبقه حيث نجده ينفي رجوع الفصاحة التي يفسّر بها الإعجاز القرآني إلى اللّفظ أو المعنى أو الصور البيانية، إنّما ترجع إلى الأسلوب والأداء والصياغة النحوية للتعبير."[3]

أما الذي "أعطى فكرة النّظم المجال الواسع والصورة الجلية أكثر من غيره من العلماء هو" **عبد القاهر الجرجاني**" رجل البلاغة وعلَمها، الذي سخّر كل جهده لتوضيح هذه المسألة، حتّى اكتملت الفكرة على يديه لتصبح نظرية تعرف به لها قواعد وأصول، وقد كان النّظم عنده شديد الارتباط بالنّحو أو هو بعبارة أخرى توخّي معاني النحو."[4]

ثمّ إنّ "معنى النّظم عند "**الجرجاني**" هو طريقة ترتيب الكلام وتركيبه على نحو مخصوص، متوخّى في هذا التركيب قواعد النحو ومعانيه، فهذه المعاني بها يترابط الكلام، ويتعلّق بعضه ببعض تعلّقًا يحدث الجمال البلاغي المقصود وترتب بموجبها الكلمات وفقًا لترتيب المعاني الأصلية والفرعية في النّفس."[5]

---

[1]- ينظر، فهد الرّومي، مرجع سابق، ص 22 - 23.

[2]- المرجع نفسه، ص 23.

[3]- المرجع نفسه، ص 23 (بتصرف).

[4] - ينظر، وليد قصاب، مرجع سابق، ص101 .

[5]- المرجع نفسه، ص 101 (بتصرف).

وفي المعنى ذاته نجده يقول في كتابه (دلائل الإعجاز) الذي بسط فيه نظريته وحدّد أصولها التحديد الدقيق:"اعلم أنّ ليس (النّظم) إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه "علم النحو" وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها."[1]

وبناء عليه، وبعد أن اكتملت فكرة النّظم لديه "سعى **الجرجاني** لإيضاح جمال ذلك النّظم القرآني البديع ضاربًا عديد الأمثلة للتدليل عليها مؤكدًا أنّ الفضل لا يعود للمفردات وهي منفردة وإنما يعود إلى ارتباطها وتآلفها بعضها إلى بعض"[2]، وكان من ضمن ما عرضه توضيحًا لفكرته ذلك التحليل الرائع لما جاء في فحوى الآية الكريمة التي يقول فيها ربُّ العالمين جلَّ وعلا:"**وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴿٤٤﴾ " (هود : 44).

وفي تحليله لهذه الآية الكريمة نجده يقول في شأنها:" فتجلّى لك منها الإعجاز، وبهرك الذي ترى وتسمع، أنّك لم تجد ما وجدت من المزّية الظاهرة، والفضيلة القاهرة، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة وهكذا... إلى آخرها .وأنّ الفضل حصل في مجموعها ."[3]

ولعل مراده من هذا التحليل هو تأكيد أنّ روعة النّظم تكمن في مراعاة الأصول النحوية في التركيب، ويواصل تعقيبه على الآية قائلا:" أفترى لشيء من هذه الخصائص – التي تملؤك بالإعجاز

[1] – وليد قصاب، مرجع سابق، 102.

[2] –صلاح الدّين، عبد التّواب، مرجع سابق، ص 124 (بتصرف).

[3] – عبد القاهر الجرجاني، مرجع سابق، ص 51.

روعة، وتحضرك عند تصوّرها هيبة تحيط بالنّفس من أقطارها – تعلّقًا باللّفظ من حيث هو صوت مسموع، وحروف تتوالى في النّطق؟ أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتّساق العجيب؟. "[1]

ومعنى ذلك أنّ "جمال اللّفظة المفردة بما فيها من رشاقة وخفة جرس ولطف إيحاء، لا قيمة له ما لم تقع موقعها ويهيأ لها النّظم موضعها."[2]

وبذلك يكون النّظم القرآني البديع والتأليف الإلهي المحكم من أبرز سمات أسلوب القرآن الذي "يحمل طابعًا لا يلتبس معه بغيره، ولا يجعل طامعًا يطمع أن يحوم حول حماه، بل يدع الأعناق تشرئب إليه، ثمّ يردّها ناكسة الأذقان على الصدور."[3]

وللإشارة فإنّ هذه السّمات التي ذكرناها هي أهم ما ميّز التركيب الفنّي في أسلوب القرآن الكريم، وبما أنّ كلام المولى عزّ وجلّ لن يدرك جماله وروعة إعجازه أي أحد من البشر في أي زمن من الأزمان فهو كما قال الله تعالى:" **كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١** " (هود: 01).

---

[1]- عبد القاهر الجرجاني، مرجع سابق، ص 52.

[2] - صلاح الدّين، عبد التّواب،مرجع سابق، ص 126.

[3]- ينظر، محمد درّاز، مرجع سابق، ص 100.

المبحث الثالث:

اتّجاهات البحث في الأسلوب القرآني

1- الاتّجاه اللّغوي:

"لقد أراد **الله** تعالى أن يحمل العرب شرف رسالته، فجعلها بلسان عربي مبين إلى النّبي الكريم **محمّد** ρ، إذ يقول جلَّ شأنه:"**نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴿١٩٥﴾**" (الشعراء : 193- 195)."[1]

"ولو أنزل القرآن بلسان غير هذا اللسان لتجافى العرب عنه، ولاحتجوا بتعذّر فهمه لأنّه ليس بلسانهم، ولهذا السبب نزل القرآن بعربيتهم التي هي لسان **محمّد** ρ ولسان قومه الذين أصغوا إليه وفهموه، ثمّ عرفوا فصاحته ليتيقّنوا بأنّه الكلام الإلهي المعجز الذي لا يعارضه أي كلام آخر."[2]

هذا وقد سعى العلماء المسلمون من العرب وغيرهم "إلى الاهتمام بلغة القرآن، واستكشاف مواطن الجمال في الآيات الكريمة، مع أنّهم قد اهتموا بالعربية في مطلع القرن الثاني للهجرة واضعين أصولها ورسومها، وقد وجدوا الطريق إلى ذلك بلغة قريش، التي نزل بها القرآن الكريم الذي أعلى شرفها وقدرها فسمى بالقرآن هذا اللّسان على غيره من الألسنة."[3]، وبهذا اصطفى هؤلاء العلماء "لغة قريش مقياساً لفصاحة لهجات القبائل الأخرى، حين ارتحلوا إلى البوادي يستمعون لكلام العرب الفصحاء ويدوّنون كل ما يسمعونه من كلام فصيح مع انتقاء اللّغة التي تقترب من لغة القرآن، ويهملون ما عداها."[4]

---

[1] – محمد الكوّاز، مرجع سابق، ص 187.

[2] – المرجع نفسه، ص187.

[3] – المرجع نفسه، ص 187.

[4] – المرجع نفسه، ص 188 (بتصرف).

كما اهتّم العلماء بدراسة القرآن الكريم ذاته، "وكان لزامًا عليهم البدء بعربيته، فكثرت التآليف التي تناولت الحديث عن القرآن ومجازه ونظمه ولغته ومشكله، حيث أجهد كل عالم منهم نفسه لبلوغ ما يألفه بخصوص القرآن أقصى ما يمكن في الاحتجاج له والرد على كل طاعن فيه، بهدف خدمة كتاب **الله** عزَّ وجلَّ. ثم إنّ كل ذلك يصبُّ في الاتّجاه اللّغوي، مع اجتهاد جل المفكّرين والباحثين في دراسة الأسلوب القرآني من الوجهة اللّغوية."[1]

وبداية حديثنا عن هذا الاتّجاه ستكون من حيث كان أوّل العهد بالقرآن الكريم، "حيث نزل والنّاس آنذاك متفاوتون في درجة فهم معانيه وحتّى الصحابة (رضوان **الله** عليهم) شهدوا هذا التفاوت غير أنّ بعضهم من كان على اطلاع واسع باللّغة العربية وبغريبها، فالبعض منهم كان ملازمًا **للنّبي**ρ فعرف ما لم يعرفه غيره من أساليب، ثمّ إنّ هذا التفاوت كان ناتجا لاختلاف مواهبهم العقلية ودرجاتهم العلمية."[2]

هذا عن معاني القرآن، أما عربيته "فقد شقّ اثنان من صحابة رسول **الله** υ طريق العلماء إلى لغة العرب للوقوف على دراسة أسلوب القرآن، إذ ساهما في التمهيد للاتّجاه اللّغوي. أوّلهما **عمر بن الخطاب** τ حينما نبّه النّاس على كنز ثمين في تلمّس معاني القرآن ألا وهو الشّعر العربي حين قال: عليكم بديوانكم شعر الجاهلية فإنّ فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم."[3]

أما الثاني فهو "**ابن عباس** τ ، الذي سنّ سنّة الرجوع إلى الشّعر العربي في تفسير القرآن الكريم فقال: إذا اشتبه عليكم شيء من القرآن فاطلبوه في الشّعر."[4]

---

[1]- ينظر، محمد الكوّاز، مرجع سابق، ص 188.

[2]- المرجع نفسه، ص 189.

[3]- المرجع نفسه، ص 189.

[4]- المرجع نفسه، ص 189- 190.

وقد تميّز **ابن عباس**ت بطريقته التي اشتهر بها أكثر من غيره، حيث أنّه كان "إذا سأل عن القرآن أنشد فيه الشّعر، وقد لقيت هذه الطريقة اهتمامًا لدى علماء اللّغة فتبنّوها وقاموا بدراسة القرآن الكريم في ضوء أساليب العرب في كلامهم، ثمّ إنّ نموّ هذه الفكرة واتّساعها قد شمل فيما بعد جمع اللّغة والشّعر الفصيح من بوادي العرب ومضارب خيامهم، والتقاط كل ما يعرض عليهم من أساليب كلام العرب الفصحاء ليتم عرضها على أساليب القرآن وتلك إعانة على تفسيره وفهم معانيه."[1]

وفي مواصلة للحديث عن هذا الاتّجاه اللّغوي نقول أنّ له مرحلتين في دراسة أسلوب القرآن نذكرهما في هذا الصدد:

أمّا المرحلة الأولى "فتتجلى في تلك الجهود التي بذلت من قبل العلماء لتأكيد عربية أسلوب القرآن الكريم، في ضوء الظروف الجديدة التي شهدها المجتمع العربي ومنها بعد العهد بزمن نزول القرآن، واستغلاق معانيه على الناشئة وكذا احتكاك العرب بالأعاجم الذين كانت لغاتهم الأولى تحول دون فهم مرامي القرآن ومقاصده."[2]

حيث نجد "**سيبويه** (180هـ) يقول عن ما جاء في مضمون الآية الكريمة: "**وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ** ۝" (المطففين: 01) لا ينبغي أن تقول إنّه دعاء ها هنا، ولكن العباد إنّما كُلِّموا بكلامهم وجاء القرآن على لغتهم وعلى ما يعنون."[3]

وفي كلامه إشارة إلى أنّ القرآن الكريم قد "نزل بلغة العرب، أي بلسان عربي مبين وتطابق أساليبه مع أساليبهم في الكلام، وقد سلك **الفرّاء** (207هـ) الاتّجاه الذي سلكه **سيبويه** في عربية القرآن، فعمد إلى تأليف كتابه بالرجوع إلى كلام العرب والاستناد عليه في عمله هذا، ولعل الداعي إلى وضع

[1]- ينظر، محمد الكوّاز، مرجع سابق، ص 190.

[2]- المرجع نفسه، ص 190 بتصرف.

[3]- أبو بشر بن عثمان، سيبويه، الكتاب تحقيق عبد السلام هارون، دار المدني القاهرة، ط 3 ، 1988 م، ص 331.

مؤلِّفه هو ما شهده القرن الثالث الهجري من حاجة إلى تفسير معاني القرآن فتم بذلك جمعها في المصنّف ليسهل الرجوع إليه."[1]

وفي رجوعه إلى كلام العرب نذكر المثال الذي أورده في معانيه يقول تعالى:"**أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ** ﴿١٦﴾ " (البقرة: 16)، "ربّما قال فيه القائل: كيف تربح التجارة، وإنّما يربح الرجل التاجر؟ والجواب هو أنّ ذلك من كلام العرب ففيه ربح بيعك وخسر بيعك فحسن القول بذلك لأنّ الربح والخسر إنّما يكونا في التجارة فعلم معناه."[2]

والجدير بالذّكر أنّ **الفرّاء** "قد شغل بمطابقة القرآن لأساليب العرب، ولم يعنى ببيان المفارقة بين الأسلوبين، وفي هذا نجده مثيلا **لسيبويه** في الرجوع إلى كلام العرب في تفسير القرآن الكريم وتبيان طرق تصرف معانيه."[3]

ويأتي في ذات المسار الإمام **الشافعي** (204هـ) الذي "قدّم مبحث المبادئ اللّغوية ضمن البحث في أصول الفقه، ليصل إلى استنباط الأحكام من نص القرآن، وذلك يستدعي بالضرورة الإلمام بلسان العرب وفي نفس السياق نراه يقول: وإنّما بدأت بما وصفت من أنّ القرآن نزل بلسان عربي دون غيره لأنّه لا يعلم من إيضاح حمل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب وكثرت وجوهه وجماع معانيه وتفرّقها، ومن علمه انتفت عنه الشّبه التي دخلت على من جهل لسانها."[4]

وزيادة على هذا فإنّ الإمام قد كشف في مقدمة رسالته عن "موافقة القرآن الكريم للّسان العربي في الاتّساع كتسمية الشيء الواحد بالأسماء العديدة، وفي تسمية المعاني الكثيرة بالاسم الواحد، وغير

[1]- محمد الكوّاز، مرجع سابق، ص 192.
[2]- المرجع نفسه، ص 192.
[3]- المرجع نفسه، ص 193.
[4]- المرجع نفسه، ص 193- 194.

ذلك ممّا كانت العرب تعرفه، إلا أنّنا نجد بحثه في الأسلوب القرآني يقرب بحث اللّغويين أكثر من غيرهم."[1]

أمّا إذا انتقلنا إلى **أبي عبيدة** (210هـ) فسنجده"يمثل الاتّجاه اللّغوي في مرحلة إثبات عربية القرآن، كان كتابه (مجاز القرآن) بموضوعه القرآني، ومنهجه اللّغوي، يحمل خصائص فريدة يصح بها مثالا لدراسة أسلوب القرآن."[2]

ولعلَّ "الدافع وراء تأليف المجاز هو السعي للدفاع عن القرآن والرد على الطاعنين فيه، مع أنّه قد وضع كتابه مرجعًا للذين لم يألفوا أساليب الكلام العربي ومجازاته، لأنّه كان يدرك حاجة من تعلم اللّغة العربية دراسة لا فطرة فكان مراده من ذلك كفايتهم السؤال عمّا يغمض عليهم في الكتاب الكريم."[3]

وقد شمل بحثه في إثبات عربية القرآن على مستويين:

أ- مستوى التركيب:

"حيث فسّر القرآن بتراكيب العرب ومثاله ما جاء في فاتحة الكتاب قال ومجاز من جر (مَالِكِ) في قوله تعالى: " **مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ** ۝٤ " (الفاتحة: 04) إنّه حدث عن مخاطبة غائب ثم رجع فخاطب شاهدًا فقال: " إيّاك نعبد وإيّاك نستعين " وفي هذا تفسير لظاهرة الالتفات في القرآن.

أما في كلام العرب يقول عنترة:

شطت مزار العاشقين فأصبحت ** عسرا على طلابك ابنة مخرَمِ."**[4]

[1]- ينظر، محمد الكوّاز، مرجع سابق، ص 194.
[2]- المرجع نفسه، ص 194.
[3]- ينظر، المرجع نفسه، ص 194- 195.
[4]- المرجع نفسه، ص 197.

ب- مستوى الأفراد:

"وفيه برهنة على خلوص عربية اللّفظ القرآني من العجمة، حيث نجد **أبا عبيدة** قد دفع كل شبهة عن عربية الكتاب المجيد فقال: نزل القرآن بلسان عربي مبين، فمن زعم أنّ فيه غير العربية فقد أعظم القول."[1]

وممّا يلاحظ في مقدمة المجاز أنّ صاحبها "كان واعيًا بقضية المجازات، مع إدراكه لأهميتها في دراسة أسلوب القرآن، فضلا على أنّنا نراه يستخرجها من القرآن ويجمعها ويدرجها في موضع واحد من الكتاب مع شواهد قرآنية عديدة.

وللإشارة فإنّ مجاز القرآن قد ترك عظيم الأثر في مجال الإعجاز البلاغي، باعتباره مرتكزًا لغويًا قامت عليه الدراسات الفنّية لأسلوب القرآن، فقد أثبت أصالة لغته وتفوقها على كلام العرب."[2]

هذا وقد كان حديثنا فيما سبق من سطور حول المرحلة الأولى من الاتّجاه اللّغوي التي تضمّنت ما بذل من جهد من قبل العلماء لتثبيت عربية الأسلوب القرآني.

ولعلَّ "المرحلة الثانية من هذا الاتّجاه تظهر بجلاء فيما قدّمه **ابن قتيبة** حينما سار على خطى **أبي عبيدة** في الاتّجاه اللّغوي، فقد أفاد من نتائج دراسته في الدفاع عن أسلوب التنزيل، من جهة طعن الملاحدة فيه، وفي ذلك نجد **ابن قتيبة** قد وضع كتابه (تأويل مشكل القرآن) ليعطينا صورة بيّنة المعالم للتحوّل الذي طرأ على دراسة إعجاز القرآن، وذلك من خلال اكتساب هذه الدراسة شكل الدفاع عن كتاب الله تعالى."[3]

وانطلاقًا من هذا فإنّ **ابن قتيبة** قد "رتّب بحثه في الأسلوب القرآني ترتيباً أوّلياً كان كافيًا لسدّ الباب أمام محاولات التشكيك في أسلوب القرآن، وتعدّ جهوده في هذا المجال خطوة مهمة، ساهمت

[1]- ينظر، محمد الكوّاز، مرجع سابق، ص 198.
[2]- المرجع نفسه، ص 199- 200.
[3]- المرجع نفسه، ص 200 (بتصرف).

في التمهيد لوضع مؤلّفات مستقلة في دراسة الإعجاز البلاغي ، وفي ما سبق ذكره نجد **ابن قتيبة** قد تأثّر في هذا الاتّجاه بسابقيه ويتّضح ذلك من خلال استشهاده بآراء **أبي عبيدة** في مصنّفه هذا."[1]

ومن يمعن النّظر في فحوى كتابه يجده قد "اقتصر فيه على الدفاع عن أسلوب القرآن بالإفادة من ثبوت عربيته عمومًا ولا سيما مجازاته، مع اهتمامه بدراسة أساليب العرب التي وردت في القرآن دراسة موسّعة بترتيب وتبويب كبيرين رافعًا بذلك الإشكال الحاصل في ظاهر النّص."[2]

ومع هذا فإنّنا لا نجده يعنى في ما وضعه بدراسة الإعجاز القرآني، "والتعمّق في خصائصه اللّغوية النوعية التي تفرّد بها، إلا أنّ النّاظر في مقدمة الكتاب يجده يشير إلى الإعجاز في القرآن من خلال قوله:" أن جعله **الله** تعالى معجز التأليف، عجيب النّظم متلوًا لا يمل على طول التلاوة، ومسموعًا لا تمجّه الآذان وغضًا لا يخلق على كثرة الرد، عجيبًا لا تنقضي عجائبه مفيدًا لا تنقطع فوائده، ونسخ به سالف الكتب، وجمع الكثير من معانيه في القليل من لفظه."[3]

وعليه فإنّ جهود **ابن قتيبة** تعدّ مرحلة ممهدة لأن يتّجه العلماء اتّجاهًا فنّيًا في دراسة الأسلوب المعجز.

ويعدّ **الخطّابي** " أحد العلماء الذين اعتمدوا على ما اعتمده **ابن قتيبة** من بيان جهل الطاعنين بالعربية وأساليبها في زمن النزول، وفي هذا نجده ينقل خبراً عن **أبي عمرو ابن العلاء** يقول فيه:" اللّسان الذي نزل به القرآن وتكلّمت فيه العرب على عهد النّبي ρ عربية أخرى عن كلامنا هذا. وقد زعم بعضهم أنّ كلام العرب كان باقيا على نجره الأوّل وعلى طبعه الأقدم إلى زمان بني أمية ثم دخله الخلل فاختل منه أشياء."[4]

---

[1]- محمد الكوّاز، مرجع سابق، ص 201 (بتصرف).

[2]- المرجع نفسه، ص 202 (بتصرف).

[3]- المرجع نفسه، ص 201.

[4]- أبو سليمان الخطّابي، مرجع سابق، ص 45 - 46.

وبناء على ما جاء في هذا القول نجد **الخطّابي** قد بنى على ذلك أمرين مهمين هما:

– **الأمر الأوّل**: "أن جلّ العلماء امتنعوا عن الاحتجاج والاستشهاد بشعر المحدثين أمثال **بشار ابن برد** و**الحسن ابن هاني** وأمثاله من الشعراء، ليكون مرجع استشهادهم هو شعر أهل الجاهلية والمخضرمين، والسبب في ذلك يكمن فيما كان في الزمان المتأخر. في علمهم بما دخل الكلام في هذا الزمان من الخلل والاستحالة عن رسمه الأوّل."[1]

وفي هذا نجد **الخطّابي** قد"أراد أن يقاس الكلام القديم بالمعهود من لغة أهل العصر، فإذا ظهر في الأوّل ما يخالف الثاني فلا يعني الخطأ، وإنّما الكلام الأوّل هو الأصل الذي يقاس عليه."[2]

– **أما الأمر الثاني**:"ففيه استغل **الخطّابي** ما استنتجه في الأمر الأوّل وطبّقه على القرآن الكريم وردّ به طعون الطاعنين وأبان عن سبل فهم أسلوب القرآن، ومن ذلك مسألة الفروق اللّغوية التي نجده يشير إليها في بيانه لعمود البلاغة المعجزة."[3]

وفي ذلك يقول:"اعلم أنّ عمود هذه البلاغة هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل على فصول الكلام موضعه الأخص والأشكل به الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه:

– إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام.

– وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة. وذلك أنّ في الكلام ألفاظًا متقاربة في المعاني يحسبها أكثر الناس متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب كالعلم والمعرفة، والحمد والشكر والنعت والصفة."[4]

[1]– أبو سليمان الخطّابي، مرجع سابق ، ص 46.

[2]– محمد الكوّاز، مرجع سابق، ص 204.

[3]– المرجع نفسه، ص 204 (بتصرف).

[4]– أبو سليمان الخطّابي، المرجع نفسه، ص 29.

والملاحظ ممّا سبق ذكره أنّ هؤلاء العلماء الذين اعتمدوا الاتّجاه اللّغوي في دراسة أسلوب القرآن قد أوصلونا إلى ما قدّموه في هذا المجال إلى استنتاج بعض النقاط أهمها:

1- "اقتصار **أبو عبيدة** على الشّعر العربي دون النثر في بحث مجازات القرآن.

2- لقد زحزح الشّعر العربي عن المنزلة التي كان يحتلّها في ثقافة المجتمع، وجعل فرعًا من فروع المعرفة، يخدم الأصل الجديد (القرآن الكريم).

3- لقد غفل **ابن قتيبة** فيما لاحظه من خصائص الأسلوب القرآني عن الشاهد من كلام العرب، مكتفيًا باعتماد الشواهد القرآنية في عديد المواضع."[1]

ولعلَّ "أهم نقطة لوحظت من خلال ما قدّمه هؤلاء العلماء ضمن هذا الاتّجاه هو الأخذ بتفسير مجازات الأسلوب القرآني بما يشابهها من كلام العرب، وتلك تسوية بين كلام **الله** تعالى وكلام البشر، وفي هذا الخطأ الكبير."[2]

ولعلَّ ذلك الدافع وراء تناول الاتّجاه الفنّي في الأسلوب القرآني ودراسته والكشف عن مدى تفرّده عن غيره من الأساليب العربية.

[1] - محمد الكوّاز ، مرجع سابق، ص 207.

[2] - المرجع نفسه، ص 207 - 208 (بتصرف).

2- الاتّجـاه الفنّـي:

يعدّ القرآن الكريم معجزة عقلية خالدة، بعثت نهضة فكرية، وكانت الجذوة التي في النفوس روح البحث والتأمّل، فوضعت العلوم وقعَّدت القواعد خدمة للقرآن الكريم، مع الإمعان في فهم معانيه، ومعرفة أحكامه.

يقول **ابن خلدون**:" إنّ علم البيان علم حادث في الملّة."[1]

ومعناه أنّ "البيان كان من العلوم التي تولّى المسلمون غراسها في سبيل فهم كتابتهم، وكان نماؤه بعد ذلك وتشعُّب مباحثه بتأثير الدّين، وبتوجيه المفكرين من حملته ورجاله."[2]

ثمّ إن"حدوث علم البيان يضع أيدينا على اتّجاه جديد في دراسة الأسلوب القرآني إذ لم يعد الاتّجاه اللّغوي كافيًا مع تقدّم الزمن وامتزاج الثقافات لمعالجة أسلوب القرآن المعجز، وقد عدّ العلماء محاولة أصحاب اللّغة محاولة ظاهرية، تبحث في القشرة السطحية دون التعمّق في المعاني، والكشف عمّا وراء اللّفظ، وتؤدي بالبيان في القرآن إلى الفهم المجرّد، الخالي من الذوق الأدبي، مع إدراك الصور الفنّية وعجائب الأسلوب التي ترتفع في سلم الإعجاز."[3]

ولعلَّ من أبرز الدوافع التّي ساعدت في أخذ العلماء بالاتّجاه الفنّي هي:

أولا:"الدفاع عن القرآن أمام من أنكروا الإعجاز فيه، وإغفالهم لما تستحقه بلاغته من علوّ شأن على سائر الكلام، فذهبوا إلى أنّ في كلام العرب ما يشبهه."[4]

ثانيًا:"فهم القرآن لا يكون إلا بالتعرف على أساليبه، وما ينطوي وراء تعبيراته من معاني ومقاصد، وتلك ضرورة قد أحسّها كل مسلم."[5]

---

[1] - محمد الكوّاز، مرجع سابق، ص 211.
[2] - المرجع نفسه، ص 211.
[3] - المرجع نفسه، ص 211 – 212 (بتصرف).
[4] - المرجع نفسه، ص 212.
[5] - المرجع نفسه، ص 212.

ثالثًا:"إنّ طبيعة المعجزة البلاغية التي كانت دافعًا إلى البحث في مواطن الجمال ومكامنه في الأسلوب القرآني المعجز، إذ أنّ العلماء قد حاولوا استنباط وجوه بلاغته الفائقة في وصفها كل البلاغات، ليهتدوا إلى التعرّف على النواحي الحسن فيه، وما تفرّد به من خصائص."[1]

هذا وقد كان تفرّد الأسلوب القرآني بخصائص معجزة ميّزته عل سائر الكلام، مما جعل هذا الأسلوب مناط البحث عن تلك الخصائص وقد نحى الاتّجاه الفنّي في دراسة الأسلوب المعجز ناحيتين.

–"بلاغة العبارة: والتي تتمثل في اقتطاع موضع البلاغة، وذلك يكون بعزل الأساليب التي تحملها، لتقضي أنّ إعجاز القرآن يمكن حصر أسبابه في بلاغة العبارة.

– بلاغة النّظم:التي تعتمد على وحدة النّص، والالتحام بين أجزاءه وتقتصر البلاغة في ذلك." [2]

والملاحظ هنا أنّ "هاتين الناحيتين قد امتزجتا في المراحل الأولى من مسيرة الاتّجاه الفنّي، كما نجد ذلك واضحًا من بحث **الجاحظ** الذي كان ممهدًا للكثير من قضايا بلاغة الإعجاز، والذي كشف مواطن الإعجاز هو ما وجده من طعن وتشكيك في أسلوب القرآن."[3]

وفي بحثه حول القرآن نجده "يوجّه المعنى توجيهاً يتلاءم وطبيعة القرآن ونزوله بلسان العرب، وفي ذلك ينطلق من أنّ اللّفظ فيه دلالة على شيء دون شيء، وإذا كان اللّفظ عاماً لم يكن لأحد أن يقصد به إلى شيء يعينه...لأنّ **الله** تبارك و تعالى لا يخص ولا يعمم بالقصد وإنّما الدلالة في بنية الكلام هو الإرادة و القصد." [4]

---

[1] – محمد الكوّاز، مرجع سابق، ص 213 (بتصرف).

[2] – ينظر، المرجع نفسه، ص 213.

[3] – المرجع نفسه، ص 213 .

[4] – المرجع نفسه، ص 215 (بتصرف).

ومعنى ذلك أنّه "يدفع كل تأويل ينحرف عن بنية الكلام، مع أنّه دعا إلى اعتماد هذه البنية في الفهم والتأويل، إذ نجده في ذلك ينطلق من عربية القرآن المجيد."[1]

وقد رتّب عليها نتائج مهمّة تتجلى في قوله: "ولفضل الفصاحة، وحسن البيان، بعث **الله** I أفضل رسله من العرب، وجعل لسانه عربيًا، وأنزل عليه قرآنًا عربيًا، يقول تعالى:"**بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ** ﴿١٩٥﴾ "(الشعراء: 195).

إذ لم يخص اللّسان بالبيان ولم يحمد بالبرهان إلا عند وجود الفضل في الكلام، وحسن العبارة عند المنطق، وحلاوة اللّفظ عند السّمع."[2]

والجدير بالذكر هنا أنّ " **الجاحظ** " قد وضع موضعه في الاتّجاه الفنّي في دراسة أسلوب القرآن، من خلال شهادته له بالسّبق مع التنبيه على إعجازه، وتقديم رأيه في هذا الأخير وأنّ الوجه المعجز من بلاغة القرآن هو نظمه.

"ثمّ إنّ دلالة النّظم عند **الجاحظ** مقترنة بدلالة التأليف وقد وجد في اقترانها خروج القرآن عن سائر الكلام قال: ولابد من أن نذكر فيه أقسام تأليف جميع الكلام، وكيف خالف القرآن جميع الكلام الموزون والمنثور، وهو منثور غير مقفى، على مخارج الأشعار والأسجاع وكيف صار نظمه من أعظم البرهان وتأليفه من أكبر الحجج."[3]

والمعنى من ذلك أنّه "يرى وجه الإعجاز في النّظم، وبذلك نراه إمام المذهب القائل بأنّ الإعجاز في نظم القرآن، وهو ما صار مذهبًا غالبًا دفع العلماء إليه دفعًا، ومهّد لعلماء الإعجاز دراسة أسلوب القرآن منهم **الباقلّاني** الذي تبنّى فكرة **الجاحظ** في مباينة أسلوب القرآن لأساليب الكلام عند العرب."[4]

---

[1] – محمد الكواز، مرجع سابق ، ص 215

[2] – المرجع نفسه، ص 215 .

[3] – أبو عثمان الجاحظ، البيان والتبيين، ت– عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ج 1، ك2، ط7، 1998م–1418هـ، ص 383.

[4] – الباقلّاني، إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص 35 (بتصرف).

وزيادة على ما سبق نجد **الرّماني** (386هـ) "من بين العلماء الذين أخذوا بالاتّجاه الفنّي من خلال التقاطه لذلك (النّكت) أي أنّ النقط أو المواضع التي تكمن فيها بلاغة العبارة القرآنية فأقام كتابه عليها المسمى (النّكت في إعجاز القرآن) الذي سبقت الإشارة إليه، وقد قسّم **الرّماني** البلاغة على طبقات: عليا ووسطى ودنيا، وجعل القرآن في الطبقة العليا."[1]

"وتكمن أهمية البحث في بلاغة العبارة لديه في تبيان ذلك التفاوت بينها وبين عبارة البشر بمقارنة ضمنية في الغالب، وبمقارنة ظاهرة في النّادر، حيث نجده ينطلق في ذلك كلّه من مبدأ عام هو أنّ ظهور الإعجاز في الوجوه التي بيّنها، يكون باجتماع أمور يظهر بها للنّفس أنّ الكلام من البلاغة في أعلى طبقة."[2]

وفي باب حديثه عن التفاوت نجده يقارن في باب الإيجاز بين قولهم:" (القتل أنفى للقتل)، وقوله تعالى:" **وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ** ﴿١٧٩﴾ " (البقرة: 179).

وقد أظهر **الرّماني** لنا التفاوت في أربعة أوجه هي:

1- إنّ قوله تعالى أكثر في الفائدة.

2- إنّه أوجز في العبارة.

3- إنّه أبعد من الكلفة بتكرير الجملة.

4- إنّه أحسن تأليفاً بالحروف المتلائمة.

ليخلص في الأخير إلى أنّ قوله تعالى قد صار باجتماع هذه الأمور أبلغ من قول النّاس وأحسن. وهو الأحسن – وهذا أكيد – وإن كان قولهم بليغًا حسنًا." [3]

[1] – محمد الكوّاز، مرجع سابق، ص 255.

[2] – المرجع نفسه، ص 255.

[3] – أبو الحسن الرّماني، مرجع سابق، ص 77.

هذا وقد شمل الاتّجاه الفنّي على" بلاغة العبارة وبلاغة النّظم كناحيتين أساسيتين فيه، ولعلَّ بلاغة النّظم هي التي تعنى بالنّص، وهو الوحدة المترابطة الأجزاء، ثمّ إنّنا نجد صورة النّظم لدى العلماء الذين مهدوا للإمام **عبد القاهر الجرجاني** لأن يضع نظريته في النّظم، وسنتكلم عنها في بداية حديثنا عن الاتّجاه العقلي في دراسة الأسلوب القرآني المعجز "[1]

[1] – محمد الكوّاز ،مرجع سابق، ص 240.

3- الاتّجـاه العقلـي:

يقول تعالى:"الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣" (يوسف: 1 – 3).

إنّ في الآية الكريمة الأولى"وصف للكتاب بالمبين، أي الظاهر أمره بإعجاز العرب، الذي يوحي لمن تدبّره وتأمّل معانيه أنّه من عند **الله** تعالى. أما في الآية الثانية دعوة للتَعَقُّلِ، والفهم والإحاطة بمعاني القرآن، لكي لا يلتبس على العرب، فلو كان أعجميًا لقالوا عجزنا عن فهمه لأنّه ليس من لغتنا، فجاء عربيًا مبينًا، وفي هذا مدار إدراك إعجاز القرآن على العقل، إذ لا يمكن تبيان إعجازه بالنّظر أو المشاهدة، إنّما بالعقل الذي يميّزه من كلام البشر وهذا راجع إلى الطبيعة العقلية للمعجزة القرآنية. "[1]

ضف إلى ذلك فإنّ "العقل هو الذي يدرك وجوه الإعجاز كلّها كيف ما كانت، وهو بإدراك الوجه البلاغي أجدر وأقدر، فاقترن العقل بإدراك أسرار الأسلوب المعجز، وقد سعى علماء الإعجاز إلى الكشف عن مواضعه ووجوهه بعد تحكيم عقولهم."[2]

وفي هذا يتّضح الاتّجاه العقلي من خلال "تعامل العلماء مع النّص المعجز نفسه بعدما كان أوّل مظاهر هذا الاتّجاه خارجاً عن النّص المعجز، إذ نجد فيه تدليلا على عدم معارضة العرب لأسلوب القرآن مع توفّر الدواعي وقد كان هذا الوجه مستمدًا من العقل وراجعًا إليه، وفي هذا الذي قيل تتبين النقلة من البرهنة على عدم قيام المعارضة إلى البرهنة على إعجاز النّص القرآني."[3]

[1] – محمد الكوّاز، مرجع سابق، ص 242.
[2] – المرجع نفسه، ص 242 (بتصرف).
[3] – المرجع نفسه، ص 243.

إذ تعدّ هذه النقلة من الأهمية بمكان في علم الإعجاز، وخاصة منه الوجه البلاغي، لما فيه من سعة أفق وامتداد، تحوي ما أضافه العلماء في تتابعهم على دراسة أسلوب القرآن العظيم، ولعلَّ أهم من ساق تلك النقلة النّوعية هو **عبد القاهر الجرجاني**، وهو يردّ على من خالف رأيه في وجه الإعجاز، ويقول في هذا الشأن" إنّا إذا سقنا دليل الإعجاز، فقلنا لولا أنّهم حين سمعوا القرآن وحين تحدّوا إلى معارضته، سمعوا كلامًا لم يسمعوا قط مثله، وأنّهم رازوا أنفسهم، فأحسّوا بالعجز عن أن يأتوا بما يوازيه أو يدانيه..."[1]

ويواصل حديثه قائلا:" فقيل لنا: قد سمعنا ما قلتم فخبّرونا عنهم عمّاذا عجزوا ؟ أعن معان من دقة معانيه وحسنها وصحتها في العقول أم عن ألفاظ مثل ألفاظه ؟ فإن قلتم عن الألفاظ، فماذا أعجزهم من اللّفظ ؟ فقلنا: أعجزهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، ومن خصائص صادفوها في سياق لفظه وبدائع راعتهم من مبادئ آية ومقاطعها ومجاري ألفاظها ومواقعها."[2]

وفي هذا السياق نجد **الجرجاني** "يلفت النّظر إلى الإعجاز وهو داخل النّص القرآني بعد ما كان قد وجد لدى العلماء خارجًا عن النّص، ثمّ إنّنا نجده لا ينفرد بهذه الالتفاتة فحسب بل سبقت بجهود قيّمة أعانته على شقّ طريق النّظم على أسس عقلية لم تكن عند سابقيه."[3]

وبناءًا عليه نجد **الخطّابي** قد "اعترض على أهل النّظر تفسير بلاغة القرآن، حيث لم يرضى فيها بالتسليم على ضرب من غلبة الظنّ دون التحقيق، والبحث بإحاطة العلم عن باطن العلّة، إذ ينوّه إلى اتّخاذ العقل وسيلة للوصول إلى بواطن العلّة، لأنّ الكشف عن وجه البلاغة القرآنية لا يكون بالذوق وحده بل بإعمال العقل والتدبّر."[4]

---

[1] – عبد القاهر الجرجاني، مرجع سابق، ص 38.

[2] – المرجع نفسه، ص 39.

[3] – محمد الكوّاز، مرجع سابق، ص 244.

[4] – المرجع نفسه، ص 244.

وتكمن الأهمية وراء ما قدّمه من دراسة في أنّه أوضح فكرة النّظم القرآني وفصل أمر تحليله إلى عناصر متفاعلة يقوم بها الإعجاز، حيث يعدّ بحثه مرحلة جديدة في الدراسة البيانية لأسلوب القرآن.

ونخلص في آخر هذا الفصل إلى أن الأسلوب القرآني قد اتسم بسمات وخصائص تفرد بها على غيره من الأساليب الأخرى ،إضافة إلى كونه قد صار معجزا بهذا الإنفراد.